

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00975 9618

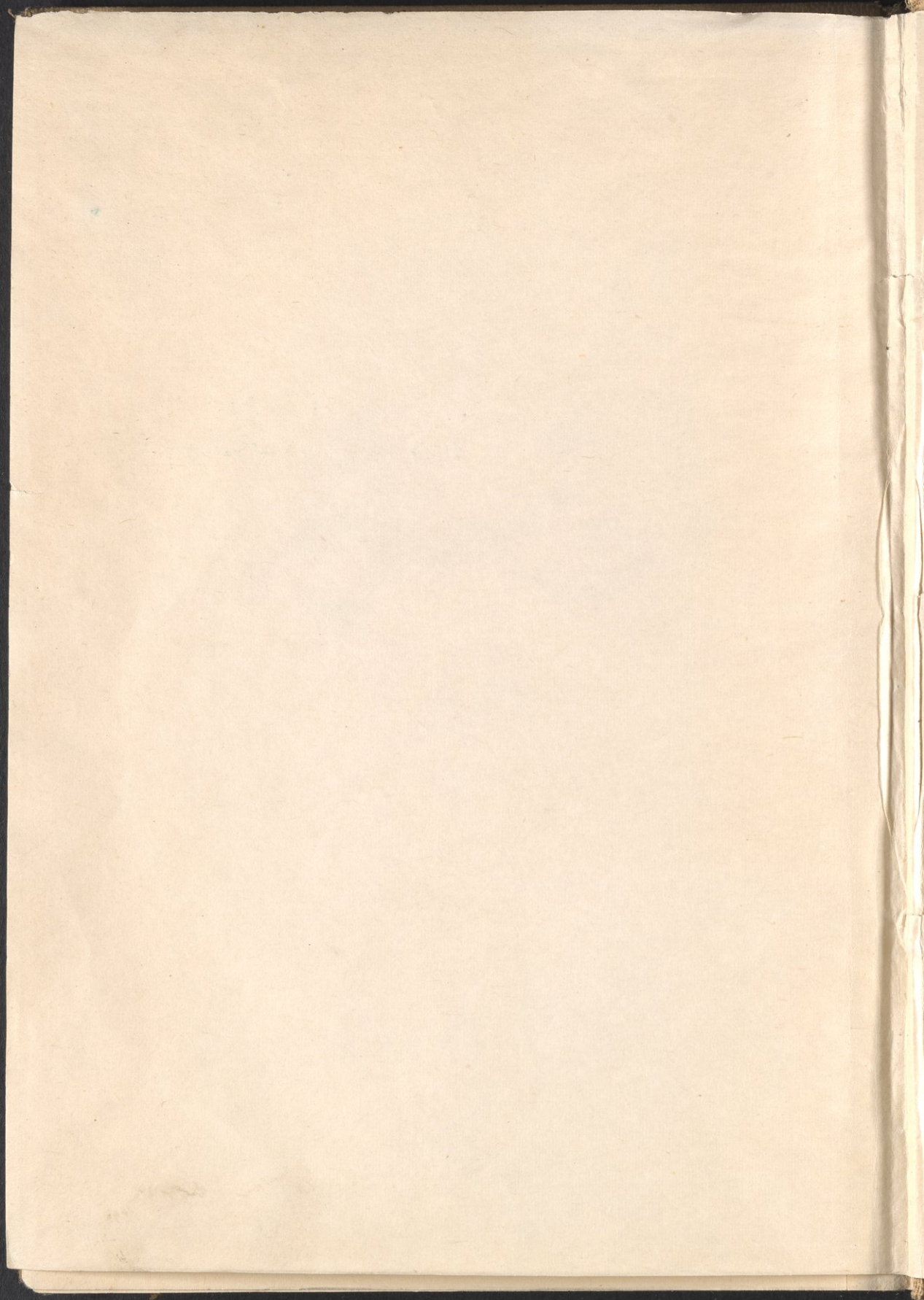
02-892

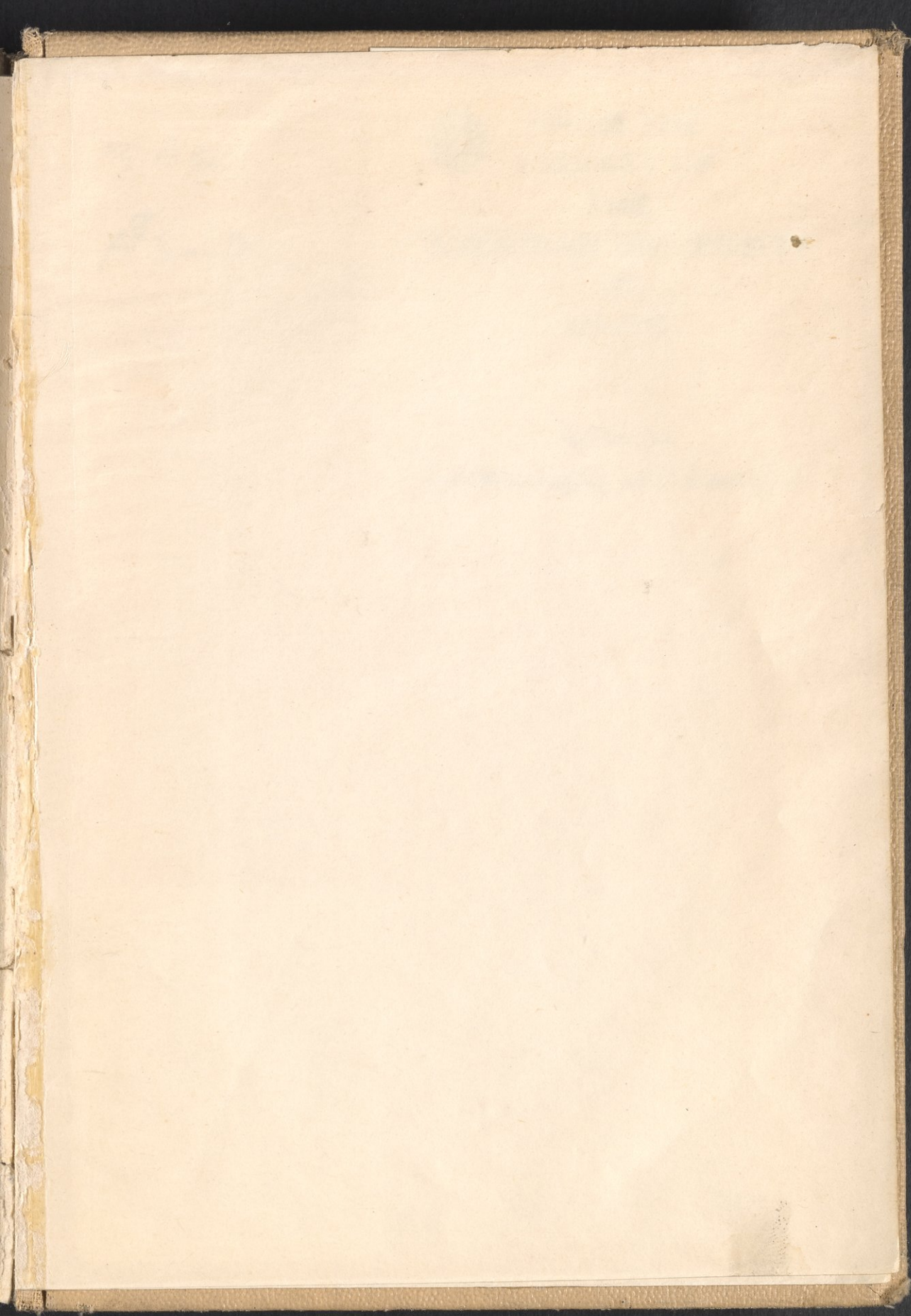
مكتبة



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة





pj
7828
K52
T35
1941

توفيق الحكيم

تحت شمس الفكر

الطبعة الثانية

« أضيفت إليها فصول جديدة »

الناشر : مكتبة الآداب بالجمايز تليفون ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة التوكل بالجمايز

١٩٤١

OCLC
23501382

B12311480
13625135

لست أحب الأسراع في إعادة طبع كتي التي تنفذ .
وكثير من كتي قد نفذ منذ زمن فلم اصنع إلى رغبة
الناشرين في إعادة الطبع . ذلك اني أحب أن تمضي فترة
تتيح لي أن اراجع أفكارى القديمة بعين جديدة ، لأرى
مدى استحقاقها للمضى في الحياة معي . إنها هي التي
ينبغي لها أن ترغمني على تحمل تبعه بقاءها . فهي وحدها
التي تملك بيدها أمر حياتها . لا أنا ولا الناشر . وهكذا
رضيت أن تنشر هذه الطبعة الجديدة عندما تبين لي
اني لم استطع محو سطر من سطورها . بل لقد اضفت
اليها فصولا أخرى من رسائل ونظرات ومساجلات ،
رأيت مكانها الطبيعي بين دفتي هذا الكتاب .

٨ مايو ١٩٤١

كتب توفيق الحكيم

التي نشرت في اللغة العربية

مجمد { (الطبعة الاولى : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
الطبعة الثانية : مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهر زاد { (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)

أهل الكهف { (الطبعة الاولى : مطبعة مصر ، الطبعة الثانية : مطبعة الاعتماد
عام ١٩٣٣ . الطبعة الثالثة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر عام ١٩٤٠)

عودة الروح { (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
في جزئين

أهل الفن : (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

مسرحيات { المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر
الجنون ، رصاصة في القلب ، جنسنا اللطيف .
توفيق الحكيم { (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

القصص { بالأشتراك مع الدكتور طه حسين بك :
المسحور { (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

المجلد الثاني : ويشمل قصص : الخروج من الحنة ، أمام
شباك التذاكر ، الزمار ، حياة تحطمت . (مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

مسرحيات
توفيق الحكيم

الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثانية :
مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر عام ١٩٣٨

يوميات نائب
في الأرياف

(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

عصفور من
الشرق

الطبعة الاولى
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تحت شمس
الفكر

(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

تاريخ حياة
معدة

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

عهد الشيطان { (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

براكسا
أو
مشكلة الحكم { مطبعة التوصل عام ١٩٣٩

راقصة المعبد { مطبعة التوصل عام ١٩٣٩

نشيد الأناشيد { مطبعة مصر عام ١٩٤٠

حمار الحكيم : مطبعة التوصل عام ١٩٤٠

سلطان الظلام : مطبعة التوصل عام ١٩٤١

كتب توفيق الحكيم

التي نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد } ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية .

عودة الروح } ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥ .
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ .

يوميات نائب
في الأرياف } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور
حافظ عفيفي باشا .

أهل الكهف } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية .

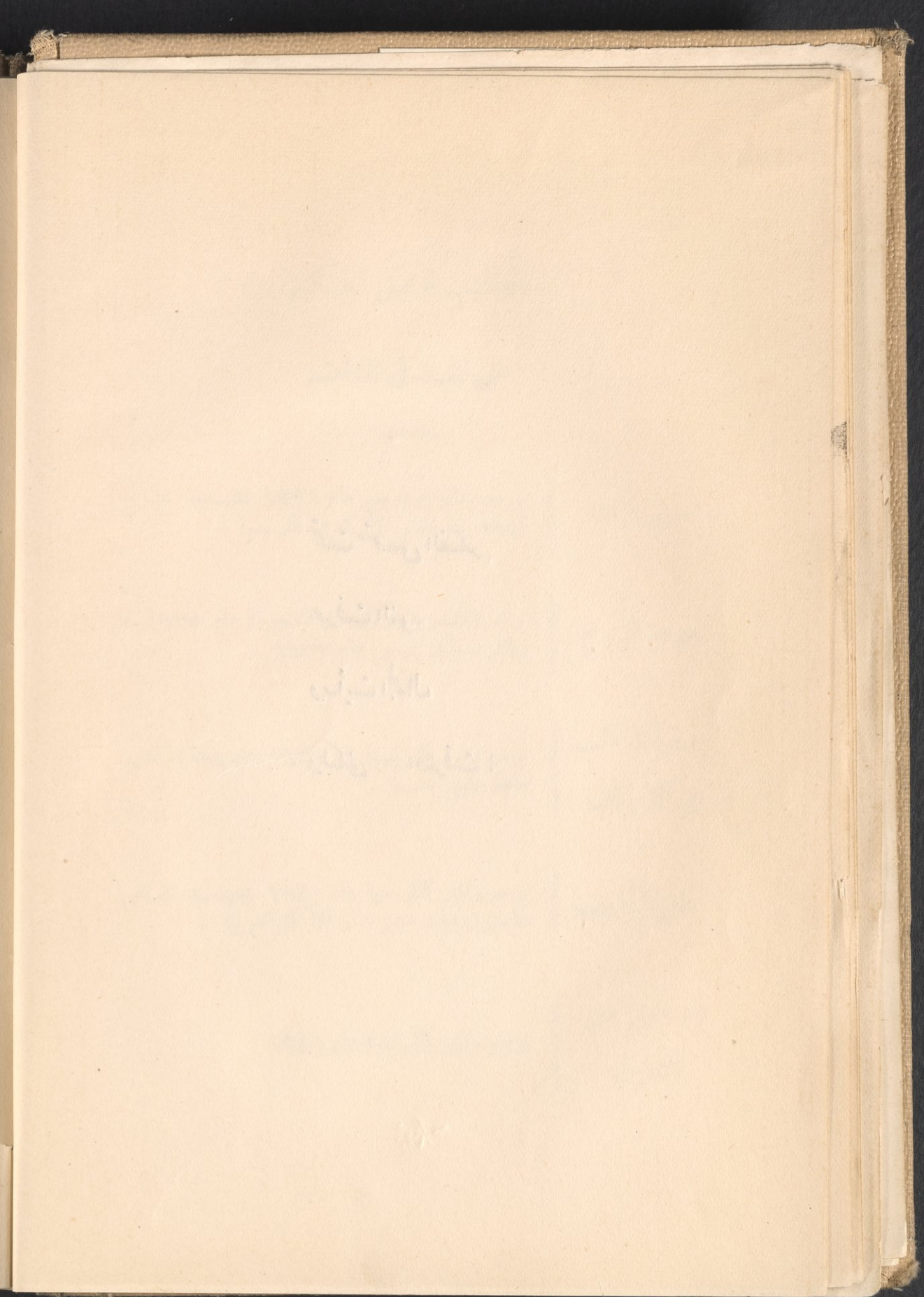
عصفور من
الشرق } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

نحت شمس الفكر

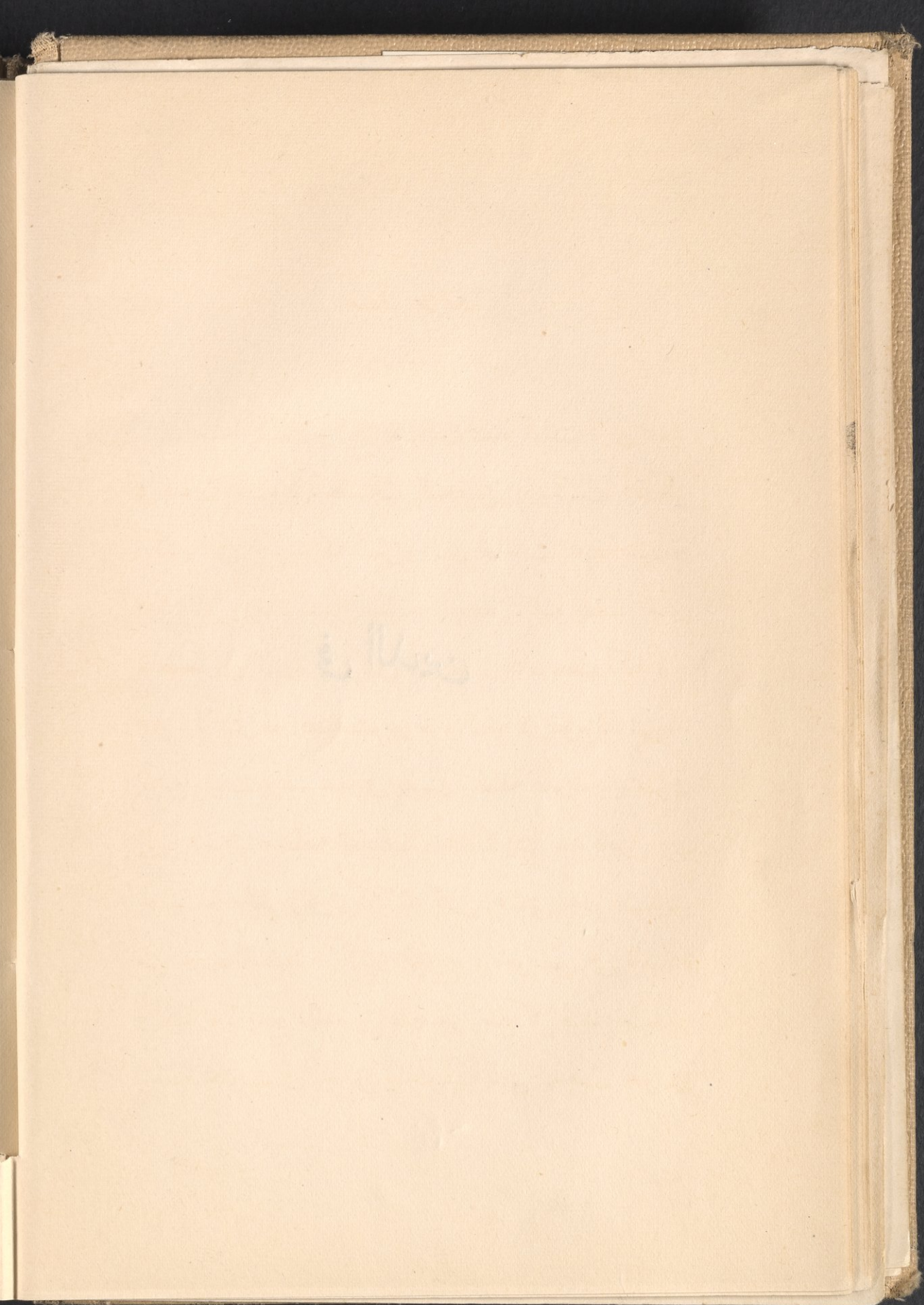
عرفت النور

ورأيت الجمال

ولكني . . . اعترفت !



في الدين



منطقة الإيمان

حينما كنت وكيلًا للنائب العام كنت أرى عجباً
في قاعات المحاكم وجلسات التحقيق ؛ وكنت أفكر
كثيراً في أمر ذلك الشرير الذي طالعت صحيفة حياته
فاذا آثام ودماء تسيل منها ، ومع ذلك يقف أمامي
متطلعاً إلى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذباً .
هذا الآدمي قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شيء ،
لكن بقيت برغم هذا في نفسه منطقة عذراء لم يتطرق
إليها فساد : منطقة العقيدة ! أهنأك إذن حد فاصل بين
العقيدة والغريزة ؟ كذلك كان يدهشني أمر صديق
من خيرة القضاة . كثير الورع ، حريص على العبادة
والصلاة ؛ ومع ذلك بقي عقله حرّاً من كل قيد . ما يدور
بيننا حديث في الخالق والخلقة حتى يذهب هو في

التدليل والمنطق كل مذهب إلى أن يقع في الاتحاد وإنكار الجنة والنار . وينادي المؤذن بالصلاة فإذا القاضي يسرع مخلصاً إلى ذلك الدين الذي قال فيه منذ لحظة قولاً عظيماً . أهنأك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فإن هذا القول يؤدي حتماً إلى نتائج غريبة قد تعدل من نظرنا إلى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ، فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل . بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى . يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس ، فعالم البصر منفصل

عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية ،
وما يعتبر موجوداً في منطقة العين لا يعتبر موجوداً في
منطقة الأذن ، فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين
المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه
الحقيقة ، ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله ،
لأن عالمها وهو عالم الأصوات لا يخطر له على بال أن في
الوجود عالماً يسمى عالم المرئيات . فالعقل لا يدرك إلا
ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه . والحقيقة العقلية
ليست الحقيقة المطلقة ، وليست الحقيقة كلها . ولكنها
الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فإذا
كانت العقيدة مرجعها القلب ، فإن العقل لن يرى منها
إلا الشطر الذي يستطيع أن يراه ، ويظل محجوباً عنه
الشطر الواقع في دائرة القلب . فوجود الخالق الجبار
المنتقم الرحمن اللطيف لا شك فيه عند القلب ؛ أما العقل

فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق ، فإنه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة إليه ، وقد يراها في منطقها صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالا له ، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التي هي في عرفهم مرادف الاكبار والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد في جسم الانسان مثلاً أن تحيط إدراكاً بحقيقة شكل الانسان الخارجي وهي جزء منه داخل فيه ؟ إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التي تمر بها كل يوم فتحولها إلى إفرازات دون أن تدري من أين جاءت ، ولا إلى أين تذهب . العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدري من أين جاءت ولا إلى أين تذهب . فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر

بالحواس ؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل ، كمن يطلب إلى الكبد مضغ الطعام .
فالحقيقة العقلية أو العامية شيء ، والحقيقة الاحساسية أو الدينية شيء آخر ؛ وإن رجال الدين يقعون دائماً في الخطأ ، إذ يسمون بسملة الظفر كلما قال رجال العلم قولاً يتفق مع الدين ، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين . وما أحراهم في كلتا الحالين أن يسموا غير مكثرين بسملة الصفاء واليقين ، وأن يستقدوا تمام الاعتقاد أن العلم في كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق ، وأن لا شأن للعلم بهم ، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه ، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طريقة واحدة من طرق معوله ، وأن أولئك الملحدين الذين سخرُوا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك

في جوهره ووجوده ، لم يستطيعوا لحظة واحدة أن
 يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك
 الموجود الاسمي الذي بيده نفوسهم . إن عقولهم كانت
 ترغى وتزبد بالكلام المعقول والمنقول ؛ وقلوبهم في
 معزل عن كل هذا الصخب ، لا تشعر ولا تدري شيئاً
 عن المعركة الحامية القائمة في تلك الرؤوس . فالتوفيق
 بين العلم والدين ضرب من العبث . على أن اجتهد المجتهدين
 في هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع
 بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعي المبني على
 الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة ...
 وهنا يتساءل الناس دائماً : ما الدين ؟ أهو شيء
 مفيد للبشر في أمرياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل
 اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم ؟ . في
 الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين

الوجهين فالدين باعتبارها قانونا اجتماعيا ينظم الغرائز ويحفظ
التوازن بين الخير والشر ، هو أمر متعلق بذات الانسان ،
متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر « الأخلاق »
في الأديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد
استطاعت أن تجدد في « الأخلاق » غنى لها عن
« الأديان » . إنما قوة الدين وحقيقته في العقيدة والايان
« بالذات الأزلية » . هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك
« الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الانساني ، بل
يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الأ حاطة ، والذات
الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية
الوجود . فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل .
ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . إني ما كتبت
هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب
التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق

العقل ، فان الشرق اليوم مقبل على حياة عامية واسعة
مهاتها المعاهد والجامعات ؛ ولا بد لنماء ملكة العقل من
التفكير الحر الطليق ، كما أنه لا بد لحياة ملكة القلب من
الشعور الحر العميق . فليترك رجال الدين المفكرين
يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ،
ويعرضون بضاعتهم الكلامية التي هي كل بهرجهم
الأدبي الأجوف ، فان كل هذا الضجيج العقلي لن يصل
خبره إلى القلب الذي لا يفتر لحظة عن التسبيح رغمًا
عنهم بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة ...

الدفاع عن الإسلام

قرأت لثلاث عشرة سنة خلت ^(١) قصة قول تير التمثيلية «محمد» ، فحججت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر . فقد سب فيها النبي العربي سباً قبيحاً عجبت له . وما أدركت له علة ، لكن عجبى لم يطل ، فقد رأيت يهدها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات :

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة ، إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . وإلى من غير وكيل رب السلام والحقيقة ، أستطيع أن أتوجه بنقدى قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة . وإني مع الاجلال العميق أجشو

(١) من تاريخ الطبعة الاولى لهذا الكتاب

وأقبل قدميك القدسيتين» (فولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥).
وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد
أعمال فولتير التمثيلية، فاطلعت على ما قال في قصة «محمد»
عاني أجدا ما يرد الحق إلى نصابه، فلم أر هذا المفكر
الحر أيضاً يدفع عن محمداً الصق به كذباً، وكأن الأمر
لا يهنيه، وكأن ما قيل في هذا النبي لا غبار عليه ولا حرج
فيه، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هي أدب وفن.
ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير، فألفيته
رداً رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين، وكله
حديث في الأدب. فعظم عجبى لأمر فولتير، وسألت
نفسى طويلاً: أليستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب
العظيم أن يعتقد ما يقول. دين تبعه آلاف الملايين من
البشر على مدى الأجيال، هو في نظره حقاً دين كاذب؟
ومبادئ إنسانية كالتى جاء بها الاسلام، هي عنده حقاً

مبادئ بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن
الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس
تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر . . .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شئ
عزيز لى : الايمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت
أحياناً ألتمس الأعذار لقولتىر ، وأزعم أنه قال ما قال
لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية
استناداً إلى علم خاطئ ، بأخبار النبى ، ولكن كتابه إلى
البابا كان يتهمة اتهاماً صارخاً ، ويدع مجالاً للشك فى
دخيلة أمره . إني قرأت لقولتىر كتباً أخرى كانت
تكشف عن آراء حرة حقاً فى مسائل الأديان ، وتم
عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذمى ، فما باله
عندما عرض لذكر محمد والاسلام كتب شيئاً هو
التعصب بعينه ، تعصب لدينه ، ذهب فيه إلى حد

السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التي ما أرى أن فولتير كان في ذات يوم من خدامها المخلصين ! هي الأطماع التي كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات ، ولقد يقدم ثمنًا لذلك أفكاره الحرة أحيانًا . منذ ذلك الحين وفولتير عندي متهم ، ولن أبرئه أبدًا . ولن أعده أبدًا من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده والفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم . على أن الذي يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والاسلام وقفوا من الأمر موقف النائم الذي لا يعي ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أركاتبًا من كتاب الاسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قال فولتير ؟ ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفاً وضع

كتاباً يبرز فيه شخصية النبي العظيمة واضحة جليلة . لقد كان الشرق في ليل هادئ بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكناً ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت في أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام في هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن في ذلك تمجيداً للحق وللشرق ، فإن المسألة ليست مسألة دين فقط ، إنما هي أيضاً مسألة جنس وقومية ، وإذا تقول أوربا : « الاسلام » فأنما تعني في غالب الأحيان « الشرق » ، والدفاع عن الاسلام لم يكن في كل الأحيان دفاعاً عن عقيدة وديانة إنما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التي يسميها الغربيون : « الشرق » . إن الحروب الصليبية في حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ، وإن الفتح الاسلامي عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن في الواقع إلا حرب الشرق على الغرب . هذا المد والجزرين الغرب والشرق

يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لا بد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به . فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التي توجه لهذا الغرض النبيل ينبغي أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعاضيد ، وإنني لست بناقذ منقطع للنظر في أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكني أريد أن أشير إشارة سريعة إلى صوت من الشرق ارتفع في العصر الحديث محتجاً مدافعاً : هو صوت الأستاذ الامام محمد عبده ، في رده علي « هانوتو » . فلقد نشر جابريل هانوتو السكاتب والوزير الفرنسي يوماً مقالة جاء فيها :

« قد أصبحنا اليوم إزاء الاسلام والمسألة الاسلامية .

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة
 لا تجارى حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين
 (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوروبا ، ولكنهم وجدوا
 في نهاية انبعاشهم هذا مدينة يرجع أصلها إلى آسيا ، بل
 أقرب في الصلة إلى المدينة البيزنطية مما حملوه معهم .
 ألا وهي المدينة الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا إلى
 الوقوف عند الحد الذي إليه وصلوا ، وأكروهوا على
 الرجوع إلى أفريقية حيث ثبتت فيها أقدامهم أحقاباً
 متعاقبة » ثم قال في موضع آخر : « وقصر فريق منا
 بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين
 الدينين المسيحي والاسلامي ، فرأى في الاسلام العدو
 الألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون في كتابه
 « باتولوجيا الاسلام » : إن الديانة المحمدية جذام فشا بين
 الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض

مريع وشلل عام ، وجنون ذهولي يبعث الانسان على
 الخمول والكسل ، ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدماء ،
 ويدمن على معاقرة الخمر ، ويجمع في القبائح . وما قبر
 محمد في مكة إلا عمود كهربائي يبت الجنون في رؤوس
 المسلمين ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع)
 العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظة الله إلى مالا
 نهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصلية
 ككراهية لحم الخنزير ، والنبذ ، والموسيقى ، والجنون
 الروحاني ، والليمانيا ، والماليخوليا ، وترتيب ما يستنبط
 من أفكار القسوة والفجور في الذات « الخ الخ .

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش
 ضارية ، وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ، كما يقول
 المسيو كيمنون : « وأن الواجب إبادة خمسهم » كما يقول
 أيضاً « والحكم على الباقيين بالأشغال الشاقة ، وتدمير

الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر « وهذا أيضا قوله : « . . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى . . أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً ^(١) ، وأن من الجائز أن يهيب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم » الخ الخ .

ما كاد يظهر هذا الكلام في صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هي أقوى ما قرأت دفاعاً عن الاسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين . وقد رد على هانوتو فيما أوردنا صائحاً :

« ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسامون ؟؟ هل كانت تلك

(١) عدد المسلمين الحقيق في العالم اليوم يبلغ نحو ٤٠٠ مليون .

المدينة هي التسافك في الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذي كان معروفا عند الغربيين وقت ما ظهر الاسلام !
« ماذا حمل الاسلام إلى أوروبا ، وما هي المدينة التي

زحف عليهم بها فردها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التي تراكت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعا بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

« إنني أكيل لمسيوها نوتو إجمالا باجمال ، والتفصيل لا يجمله قومه ، وكثير من منصفين لم يستطع إلا الاعتراف به .

« إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت
بها إلى المدينة الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة
التي كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس على ما جاورها .
وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون
فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا
منابت في أرضهم ، بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكه
بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوال
المدينة الحاضرة » .

ثم رد الامام في موضع آخر : « يجب على الباحث
في الاسلام أن يطلبه في كتابه ، كما يجب عليه أن
يطلب آثاره والاسلام اسلام ، والمسلمون مسلمون ،
ولو استشتم مسيو (كيمون) الذي استشهد هانوتو
بكلامه ربح العلم لما استفرغ ذلك القدر من فيه ،
فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه .

« من أين أتى المسامون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه ، وفي عوائدهم بالتقويه ؟ وممن تعلموا الاقتراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ؟ والله من وراءهم محيط .

« اتبع المسامون سنن من قبلهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى سقطوا في مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم . حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائد ، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) .

« أما لو رجع المسامون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسامت نفوسهم من اليب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه في تنزيله على لسان نبيه ، ومهدده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ،

واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

« يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهر اضعفهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .
 « أما فليعلم كل من يخذع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (اسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس في كنيسة : « إنه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره » .

نعم ، لقد آن للغرب أن يحترم عقائد الشرق . بل
قد آن للغرب أن يدرك أن محمداً والاسلام هما منبع من
منابع الفكر الحر وطفرة من طفرات البشرية المتحررة .
والدليل على ذلك شخصية النبي ذاتها وغرضه في الدعوة
إلى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا . فمحمدهو
أول نبي مجد البشرية بأن أعلن أنه بشر ، وأن دينه هو
دين الفطرة البشرية ، وقاوم أولئك السفهاء الذين كانوا
يطلبون إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فأثموا
في حق الفكر البشري قبل أن ياثموا في حق الدين .
فالمعجزة أى الاتيان بعمل خارق للمعتاد لا تدل
على شيء ولا تثبت نبوة ولا تدحضها . فان من الكهان
أو بسطاء الناس من يملكون أحيانا تلك القوى الخارقة
في أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا
من أجل ذلك أنبياء . إن النبي ليس في حاجة إلى معجزة

كي يكون نبيا . إنما النبي من مُحمّل رسالة علوية لا ينصرف
عن الحياة حتى يؤديها ، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن
يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلغهم رسالته واعتمد في
إثباتها على الملكات البشرية المجردة المتحررة .

فلقد جاء في كتب السيرة أن المسلمين عطشوا أثناء
مسيرهم إلى غزوة تبوك فأمطرتهم السماء فقال بعضهم
إنها معجزة ، فصاح محمد من فوره : (إنما هي سحابة مارة)
وأن الشمس كسفت يوم مات ابنه ابراهيم فقال الناس :
(إن هذا الكسوف معجزة) فصاح محمد : « إن الشمس
والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا
لحياته » . هذا كلام محمد الذي قال الغرب إنه نبي كاذب !!!
فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبي كاذب ؟ ؟

إن محمد أقدم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا
وأدرك أن أكبر معجزة في هذا الكون هي أنه لا يوجد

في الكون معجزات ، وأن كل شيء يسير طبقاً لنظام دقيق . وإذا قيل نظام قيل قانون ، وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، وهذا العقل واحد أحد تبدو سمته في إدارة الأجسام غير المحدودة في العظم ، كما تبدو في إدارة الأجسام غير المحدودة في الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها في كل شيء ، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير . إن محمداً قد تأمل الطبيعة كثيراً أيام عزله الطويلة في غار حراء ، وفكر ملياً في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره فامتلاً قلبه بالله الواحد ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء دينه ديناً كاملاً ، صادقاً في نظر القلب والعقل معاً . وإن كان على الأرض نبي حرص على أن يجاهر بمحبة العلم ومصادقته ، ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد » الذي قال : « فضل العلم خير من فضل العبادة » « اطلب

العلم ولو في الصيرن» وكثيراً من الأحاديث التي تثني على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن عقل مبدع هائل .

في كتاب حديث للعالم انشتين فصل ذكر فيه رأيه في الدين ، فقال إنه يعتقد ما يسميه « الديانة الكونية » تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كانت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه إنه لا شيء » .

لا ريب عندي أن إحساس انشتين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث في غار حراء قبل نزول الوحي . إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبي أن يكون نبياً إلا أن

يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً إلى معرفة سرها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى إليه بنشر هذا النور على الانسانية . إنى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود ، وإن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق ... بل إن الدين والعلم شيء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدانية قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق ولم يظهر نبي حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . إنما الفارق بين العلم والدين هو في السبل التي يسلكها كل في الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟؟؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة

لا يختلط بعضها ببعض ، إنما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها تهتدي إلى ذلك النور الذي لا بداية له ولا نهاية : الله ...

نجم أحمد !

وقف اليهودي على أحد أطام يثرب ناظرا إلى
السماء يعلن إلى بني قومه ميلاد النبي في صيحة مدوية :
« طلع الليلة نجم أحمد ! »

عجبا من العجب ! أحقا لم ير ذلك اليهودي نجم
أحمد قبل تلك الليلة ؟ يخيل إلى أن الناس في ذلك
الزمان كانوا يسرون مطرقين كالعميان . إن نجم أحمد
طالع في كل لحظة يشع نوراً من بداية الكون لو أن
للكون بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية ! نجم
أحمد هو الحق . والحق لا يبدأ ولا ينتهي . ولا يظهر
ولا يختفي . إنه موجود .

إذن ما الاسلام ؟ وكيف ظهر الاسلام بظهور محمد
والمسيحية بظهور المسيح ، واليهودية بظهور موسى ؟

هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق . بين المعنى
والأسلوب . ما الاسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ،
ورداء من أرديته . كذلك المسيحية وكذلك اليهودية .
وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التي تتحد في
الجوهر وتختلف في المظهر : وهنا نستطيع أن نفاضل
بين الأساليب ؛ وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين
الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم
الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا تكون في
الجوهر ، لأنه واحد أحد ؛ إنما المفاضلة في الأثواب .
وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة
بين الأثواب وهي كلها من صنع الخالق المعصوم الذي
لا ينبغي أن يخطئ ولا أن يصحح ما سبق أن صدر
عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله . أما
الأسلوب الذي يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل

والأنبياء ؟ قبل الاجابة على هذا السؤال يجب النظر
في قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب
عليه النبي أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟ هل
شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو
إليه ؟ وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبي دخل
فى اتخاذ «القالب» الذى أفرغ فيه «موضوع» النبوة ؟
إن أجب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعة فى «أسلوب»
الآديان تقع بلا مرء على كاهل الأنبياء . والنبي إذن
مسئول عن الطريق الذى اتبعه للإبانة عن «الحق»
مسئولية ملقاة على «شخصيته» التى صبغت الشريعة
بصبغتها . وعلى قدر المسؤولية تكون العظمة ؛ وعلى قدر
«الشخصية» ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى
والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فاني أستطيع القول ان النبي

أوالرسول لا يصل الى الحق متجرداً عن شخصيته . بل
 إنه لا يستطيع الدنو من الحق الا عن طريق شخصيته .
 كذلك فعل النبي العربي ، وكذلك فعل المسيح وموسى .
 وكذلك كل نبي لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق
 إحساسه وطبعه وعقله . وهي ملكات تختلف باختلاف
 الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التي جرت
 عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس . ولعل
 محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس في كل
 مناسبة الى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم
 أنه بشر خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر ، وأنه
 لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذي قصر على الرسل
 إلا إذ يشاء الله ، وأنه في كثير من حياته الخاصة أو العامة
 حيث لا وحي يهديه السبيل ، يتصرف كما يتصرف
 البشر . هكذا فعل في معارك بدر وأحد والخندق إذ كان

يستمتع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله . وهكذا فعل
إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل أنه أعلن ذلك
الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التي ركبها الخالق
في البشر . والنبي الحق أجل من أن يكتنم مزاجاً أو طبعاً ،
وهو يعترف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .
وهنا تبدو حكمة الاسلام ظاهرة بين سائر الأديان
فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة . كل شيء فيه
صادق خالص صاف . ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ،
بل فيه مساهمة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه
النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي
والمعنوي . ذلك أن أسلوب محمد في إدراك « الحق » كان
أسلوباً مستقيماً . فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما
هو « السبب » الذي يصدر عنه الناموس الأكبر ،
وأن روح الوجود هو « النظام » إذ لا يتصور أن تكون

«الفوضى» من عناصر الخليقة . بل إن «الفوضى» إذا
 حلت في نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود
 بلا نظام ؛ بل إن كلمة «الفوضى» لا محل لها إلا في أدمغة
 البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئاً من الخلل في
 ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهي
 فلا يعرف غير النظام ، هذا النظام الذي فرض على
 الإنسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟
 إن مخالفة النظام الطبيعي للإنسان والأشياء مخالفة لله ؛
 وكل دين يقف في وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون
 من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه
 محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب
 الإسلام في الإفصاح عن «الحق» واضحاً جلياً ؛ لا يأمر
 بالرهينة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من
 أجل الله . لأن الله لا يأمر بتعطيم ما بناه .

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها ، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأها لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية .

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الاسلام بلا مرء هو دين الصحة في كل شيء . فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية

التي لا تصدم تقديماً ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء . وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول ؛ فان الدين « المثالي » هو الدين البسيط . وهل أبسط من الاسلام شريعة وهي لا تعرف « رجال دين » ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ، ومن (الدين) مهنة تدر الرزق وتعطي متاع (الدنيا) ؟ إن أولئك الذين يجعلون (الدين) سلباً (للدنيا) لا (الدنيا) سلباً (للدين) قد طردوا الاسلام بعيداً عن حظيرته ، وجعل الدين سمحاً باسمه باسطاً ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار . نعم ، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النور العلوي الصافي من المبادئ البسيطة المستقيمة التي لا خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل في قوانين

الطبيعة الأساسية التي وضعها المبدع الأعظم . إذا تم ذلك
للإسلام في هذا العصر فاسوف يأتي يوم يقف فيه أهل
الأرض أجمعون من كل جنس ولون على أطام بلادهم
يصيحون في كل حول صيحة ذلك اليهودي :
« لقد طلع نجم أحمد ! » .

سر العظمة

ينبغي لمن أراد أن يدرك سر عظمة «محمد» أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكن من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب ، وإذا هو بمفرده في جانب . هو وحده الذي يدين بدين جديد ، بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود . هذا موقف النبي ، وهذا موقف العالم : رجل عاطل من كل قوة وسلاح ، إلا مضياء العزيمة وصلابة الايمان ، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة ، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها في قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم . فالنبي

هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً . والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة العتيقة ، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفترط في ورقة منها . إنها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل ، وبين عصر بأسره يزجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده وفقهائه وعلمائه ومشاهيره ، وتقاليده وماضيه ، ومجده وتاريخه ... هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي ... على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدى ورمى « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامى العجاج : « أن أترك أيها العالم دينك القديم واتبعني » . ذلك الصوت الذي لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة ... وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما المعجزة حقيقة هي

أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه
 المعركة المخيفة ظافراً منتصراً ، فإذا هذا العالم العتيد
 كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة ، وقد انقلبت
 سخريته خشوعاً طويلاً ، وقهقهته صلاة عميقة . كيف
 ربح هذا الرجل الموقعة ؟ ما وسائله ؟ هل كانت له خطط
 وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر ؟ أو أن
 الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل
 في الانتصار ؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير .
 وهنا معنى الاصطفاء ، فالله يختار من بين البشر
 عظيماً له كاهل يحتمل عبء الرسالة ، ويوحى إليه بالعقيدة
 ثم يتركه يجاهد في سبيلها . فالنبي ليس آلة تحركها
 يد الله في كل خطوة ؛ إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين
 والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التي يراها الرسول
 كفيلة ببلوغ الغاية . فالله لا يريد نشر الأديان بين البشر

إلا بالوسائل البشرية . فهو لا يتدخل بقدرته العلوية
فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزواجر
والأقطار ؛ ولكنه يحب دائماً أن يخلى بين « الدين »
وبين « الناس » حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه في
نفوسهم بجمال نوره وحده ؛ ولكن أعين الناس لا ترى
في كل الأحيان ؛ فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك
العمياء في أغوار المحيطات . هنا تبدأ متاعب النبي ؛ وهنا
تظهر المعجزة الحقيقية وهي إبراء الأعشى ، لا أعشى واحد
ولكن ملايين العميان . فهو الذي يفتح أبصارهم على
نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين الجديد الذي أتى
به . وهنا ينبغي التساؤل : كيف استطاع النبي أن يرى
الناس ما يرى ، وأن يقنعهم بما جاء به ؟ الجواب بسيط :
حياة النبي وخلقته . إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده .
إنما يؤثر فيهم الفعل والمثل . إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً

لا يسعى إلى غنى ولا إلى ملك ، وأنه يريد أن يبقى فقيراً
 يشبع يوماً ويجوع أياماً ، وأن كل تلك المخاطر التي
 يتعرض لها في كل خطوة ، وأن كل ذلك الهوان الذي
 يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ... وأن كل ذلك الجهاد
 الذي ملأ به حياته بأكلها إنما هو في سبيل «العقيدة»
 التي يقول لهم عنها ؛ منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه
 كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه
 عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض
 المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً :
 (أن يؤمنوا معه بفكرته) ؛ عند ذاك أدرك أولئك
 القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل ؛ وأنهم أمام رجل
 لا ككل الرجال ؛ وأن الآدمي الذي لا يغريه في
 الحياة شيء ، ولا يعيش إلا من أجل فكرة ، لا بد
 أن يكون قد أبصر في الفكرة جمالاً لم يبصروه هم .

(فكرة) لا تقوّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ،
 و (جمال) يضحى في سبيله خير ما في الحياة . أمام
 هذا الرجل أخذ الناس يفكرون ملياً وثبت لمن كان قد
 ارتاب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون
 أفاقاً يعمل لمغنم إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع
 له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس في هذه
 الدار . عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه
 ويصفون إلى كلامه . . فوسيلة النبي الأولى وخطوته
 التي نزل بها الميدان هي إقناع هذا الخضم الصاحب
 من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية . وهنا
 كانت قوته ؟ فإن أمضى سلاح في يد رجل يريد أن
 يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من
 مطامع البشر !

ولكن هذا لا يكفي . فالناس قد تقتنع بأمانة النبي

وقد تستمع إلى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ
 في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . إن
 صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذى الماء الكثيف ،
 يدفع إلى سطحه كل جسم غريب ، ولا ينفذ إلى أعماقه
 إلا شيء ذو وزن ، بعد زمن وجهد . وإن الناس لشديدة
 الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها . فما أدرهم
 أن هذا الكلام الجميل الذى جاء به هذا النبي ذو الحديث
 الطلى ليس إلا بضاعة زائفة ووهما خلا بلاعب بلب هذا
 الرجل ؟ ولم لا يكون هذا الرجل الأمين المسكين فريسة
 مرض ومس ؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ ؟ يطلبون له
 الطب حتى يبرأ ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حمله
 ومسه . لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر ، واتخذت
 الحرب ميداناً جديداً . ماذا يصنع النبي ؟ لا بدله من أن
 يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان حتى يصل إليها

نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فان
العاقبة في الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه خلصا
جديدا ، هو الشك الذى يقوم الآن فى رؤوس الناس .
فان كان حقيقة رجلا عظيما فليقتل هذا الشك بمفرده .
وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية .
ولقد جاهد الرسول فعلا فى كل لحظة من لحظات حياته ،
إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التى فى قلبه
حارة قوية إلى قلوب الناس جميعا . وهنا كان النصر
الأخير ، وتمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من
أن يضع العالم فى قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه
إلى أبد الأبد بنخاته ، ويدخل إلى صدره أشعة
نور جديد .

المرأة في شباب النبي

لم يرو لنا التاريخ أن النبي العربي عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة . فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم في الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق . فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره . كل ما ورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب أنه قال ذات ليلة لفتى من قريش كان معه بأعلى مكة يرعيان غنم أهلهما . « أبصر لي غنمى هذه الليلة حتى أسمع بمكة كما يسمع الفتيان » ثم خرج . فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير . فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام في مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس . ورجع . فسأله صاحبه : « ما فعلت »

فأخبره بما كان . وكان هذا شأنه في كل ليلة من مثل
هذه الليالي .

كانت العفة المطلقة اذن هي صفته الغالبة وقتئذ
وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية
الشبان وما جعل قومه يسمونه «الأمين» . ما الذي كان
يشغل رأس الشاب محمد في تلك السن ما دام اللهو
والمرأة لا محل لهما عنده ؟ أترأه كان يحس في قرارة
نفسه بمصيره العظيم ؟ نعم إن هذا الفتى قد شب في
عصر شاعت في جوه كهرباء غريبة مشحونة بالأساطير
والتنبؤات عن قرب ظهور نبي من العرب اسمه «محمد»
وكان مصدر ذلك النبا اليهود وأهل الكتاب والكهان .
حتى لقد سارع من بلغه ذلك من العرب فسمى ولده محمداً طمعاً
في النبوة . فهذا الجو الذي نشأ فيه الصبي محمد والاسم
الذي حمّله والأشاعات التي أحاطت به عن ذلك النبي

الموعد ، كل هذا كان كافيا من غير شك في أن يبعثه
على التفكير في هذا الأمر منذ الصغر ولعله طمع هو
أيضا في أن يكون هو النبي الجديد . ولعل هذه الفكرة
تملكت كيانه وطفئت على كل شبابه فلم تتسع حياته في
ذلك الوقت لشيء آخر . لقد كان هذا دائما شأن أغلب
أولئك الذين انتظرتهم أقدار عظام ، وتملكتهم منذ
شبابهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام شبابهم
وحلت فيها محل اللهو والمرح . إن كل شاب يعيش مع
شبح امرأة جميلة إلا الشاب الموعد برسالة عظمى فهو
يعيش دائما مع شبح المجد المنتظر . لعل هذا يفسر لنا
بعض الشيء حياة الفتى محمد حتى الوقت الذي لقي فيه أول
امرأة أحبها : « خديجة » . وإنا لو تأملنا الأمر مليا لتبين
لنا أنه لم يكن البادئ بالحب . كل شيء يدل على أن
الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما كان

يفكر فيه وقتئذ فلقد كان يسير في طريق تأملاته
الداخلية وأحلامه العليا وكأنه لا يمشي علي هذه
الأرض . إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ولمست كتفه
فأفاق قليلا ورفع عينيه إليها . نعم . انها هي التي كانت
ترقبه منذ زمن . وإن لشعورها نحوه جذورا ممتدة في
أغوار قلبها ، امتداد عرق الذهب في المنجم العميق .
ما مبدأ هذا الشعور ؟ لعله ذلك اليوم الذي احتفلت
فيه نساء قریش بعيدهن ، وكانت خديجة بينهن عند
وثن من الأوثان فبرز لهن أحد اليهود مناديا بأعلى صوته
« يا نساء تيماء . انه سيكون في بلدكن نبي يقال له محمد
فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجا فلتفعل . »
فقدفته النساء بالحجارة وقبحنه وأغلظن له ، إلا خديجة
فانها أطرقت وكأن شيئا وقع في نفسها من كلامه . ثم
حدث بعد ذلك أن خديجة ، وقد كانت ذات مال

كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها
الرجال ، أرسلت الشاب «محمدًا» في تجارتها وضاعفت
له الأجر . فعاد راجحاً ضعف ما كانت تربح
التجارة على يد غيره ، لأمانته واجتهاده . وقص
عليها عندئذ غلامها «ميسرة» وقد رافق محمداً في
رحلته ما رآه من خلق هذا الشاب المستقيم
الأمين . ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله ،
وانهما تذاكرا ملياً في أمر النبي الموعود المسمى «محمد»
كل هذا مع ما تشبعت به الأذهان من أساطير النبوة
المنتظرة قد ألقى في روع خديجة أنها أمام شاب لا يبعد
أن يكون هو النبي الموعود . فاذا أضفنا إلى كل هذا
أن محمداً كان فتى في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل
المنظر وأن خديجة كانت امرأة في الأربعين ، أدركنا
أن مثلها كان لا بد له أن يحب مثله . وهل يمكن أن

نسمى هـ — هذا الشعور باسم آخر غير « الحب » ؟ ذلك
الذى يدفع امرأة ذات شرف و ثروة أن تبدأ هي الخطوة
الأولى نحو فتى فقير يتيم ؟ هي التي قد تقدم اليها أكرم
رجال قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ،
طلبوها وبذلوا الأموال فلم تلتفت اليهم ، وأرسلت
تابعها « نفيسة » دسيسا إلى الشاب محمد تعرض عليه يدها .
منبع الحب إذن كان قلب « خديجة » . ولقد كان
هذا الحب ساميا قويا عظيما فاستطاع أن يفتح قلب محمد
وأن يملأه كل تلك الأعوام التي عاشتها خديجة . بل إن
هذا الحب لم ينطفئ بموت خديجة ولقد ظل مكانها من
قلبه قائما دائما لم تستطع قط امرأة أن تراحمها فيه . هذا
هو حب محمد الأول . وتلك ناحية من نواحي الفضل
المجهولة لم يذكرها الناس كثيرا لخديجة بما هي أهله من
التكريم والتمجيد : إنها أول امرأة علمت محمدا الحب .

في الأدب والفن والثقافة

الخلق

... لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض
التغيير ، كيف تغيرت ؟ هذا هو موضوع الكلام ، إن
شئون الفكر في مصر حتى قبيل ظهور الجيل الموجود
كانت قاصرة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير
العربي وتقليده ، كنا في شبه إغماء ، لا شعور لنا بالذات .
لا نرى أنفسنا ولكن نرى العرب الغابرين ، لا نحس
بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم هم ، لم تكن كلمة «أنا»
معروفة للعقل المصري . لم تكن فكرة الشخصية المصرية
قد ولدت بعد . حتى جاء الجيل الجديد فاذا هو أمام روح
جديد وأمام عمل جديد ، لم يعد الأدب مجرد تقليد
أو مجرد استمرار للأدب العربي القديم في روحه وشكله
وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما الساف ، وبدت الذاتية

المصرية واضحة لا في روح الكتابة وحدها بل في
الأسلوب واللغة أيضاً . لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا
وأول مظاهر الوعي شخصية الأسلوب واستقلال طريقة
التعبير وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة ، كل هذا أصبح
اليوم جلياً معروفاً ، ولم أكتب هذه الصفحات من
أجله ، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكري أمر لا نزاع
اليوم فيه ، ولقد مضى الكلام في هذا ، إنما الأمر الذي
يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصري .
معرفة أنفسنا : حتى تتبين لجيلنا مهمته . لقد فهمنا مميزات
الأسلوب والشكل ، وما فهمنا بعد جيداً مميزات النفس
والروح ، ماهي مميزات العقلية المصرية في الماضي والحاضر
والمستقبل ؟ ما روح مصر ؟ ما مصر ؟ إن اختلاطنا
بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا
روحاً خاصة تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح

الأخرى الغالبة ، وأن أول واجب علينا هو استخراج
أحد العنصرين من الآخر ، حتى إذا ما تم تمييز
الروحين إحداهما من الأخرى كان لنا أن نأخذ أحسن
ما عندهما ، وكان لنا أن نقول للناس : « ها نحن أولاء
قد أنزلنا لكم الطريق إلى أنفسكم فسيروا » . لا بد لنا إذن
أن نعرف ما المصري وما العربي ؟ هذا السؤال القبيح
على نفسي منذ سنوات عديدة إذ كنت أطيل النظر في
الفنين المصري والأغريقي ؟ وأذكر أنني أثرت هذه المسألة
أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنني خلصت الفرق بين
العقليتين بمثل واحد في فن النحت سائلا : ما بال تماثيل
الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد وعند الأغريق
عارية الأجساد ؟ هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها
الفرق كله ، نعم كل شيء مستتر خفي عند المصريين ،
عار جلي عند الأغريق ، كل شيء في مصر خفي كالروح

وكل شيء عند الأغريق عار كالمادة . كل شيء عند
المصريين مستتر كالنفس ، وكل شيء عند الأغريق جلي
كالمنطق ، في مصر الروح والنفس ، وفي اليونان المادة
والعقل . نظرة أخرى في أسلوب النحت تدعم هذا
الكلام . إن المثال المصري لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال
الطبيعة من حيث هي شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة ،
إنه يستنطق الحجر كلاماً وأفكاراً وعقائد . على أنه يشعر
مع ذلك بالتناسق الداخلي ، يشعر بالقوانين المستترة التي
تسيطر على الأشكال ، يشعر بالهندسة غير المنظورة التي
تربط كل شيء بكل شيء ، يشعر بالكل في الجزء ،
وبالجزء في الكل ، وتلك أولى علامات الوعي في الخلق
والبناء ؛ هذا كله يحسه الفنان المصري لأن له بصيرة
غريزية أو مدربة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة
لتحيط بقوانينها المستترة ، فنان عجيب لا يصرفه الجمال

الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن . إنه يريد أن يصور
روح الأشكال لا أجسامها ، وما روح الشكل إلا القانون
العام الأعلى المستتر خلفه ؛ إن ولع المصريين بالقوانين
الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض إلهي ، لو أن الآلهة
تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون !
كل شيء في مصر إلهي ، لأن مصر التي منحتها
الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد
في سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة ...
حظها في هذا حظ الهند : أمة كثيرة الخير كذلك دانية
القطوف لا حاجة بها إلى الكفاح ولا عمل لها إلا استمرار
ترف الحكمة العليا ، انقطعت هي أيضاً من قديم تحت
أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة .

مصر والهند حضارتان قامتتا على الروح لأنهما قد
شبعتا من المادة ، الأغر يق على النقيض ، أمة لم تشبع من

المادة ، أمة نشأت في العسر والفاقة . أرضها لا تدر من
الخير إلا قليلا ، كان لزاما عليها الكفاح في سبيل العيش
وكان حتما عليها الجرى وراء المادة ، حرب تلو حرب ،
وفتح بعد فتح ، وضرب في مشارق الأرض ومغاربها ،
على هذا النحو لم يكن للأغريق ذلك الضمير المطمئن
ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الايمان بالأرض
الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة ، إن عاطفة
الاستقرار والايمان عند المصريين ممزوجة بالدم ، لأن
المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف
لهم نسب آخر على وجه التحقيق ، واختلاف العلماء في
أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفي كل يوم يبدو دليل على أن
العمران والاستقرار وجدا في مصر قبل التاريخ المعروف
ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة دفعة
واحدة ، كما يظهر قرص الشمس في الأفق عند الشروق .

ولقد قال سولون : إن الكهنة المصريين يعنون العناية
كلها بذكریات تلك القارة العظيمة ذات المدينة الزاهرة
التي ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ : «قارة الأتلاتيد»
اترى كانت الحضارة المصرية استمراراً لتلك المدينة
المندثرة ؟ . . . لم يقم دليل . على كل فرض ، مصرأمة
مستقرة مؤمنة ، زهدا عمرها الطويل وخيرها الكثير
في مبادل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة
ظهر أثرهما على وجه الفن المصري ، ولا شيء يدل على
عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها . فلقد طالع العالم
الحديث على وجه الفن المصري الصرامة والجد والعمق ،
ولا اكاد افتح كتابا في الفن المصري حتى اجد كلمة
«الصرامة» نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا افتح كتابا
في الفن الأغريقي إلا وجدت كلمة «الحياة» وكلمة
«الانسانية» من نعوت هذا الفن ، نعم . الحياة هي كل

شيء عند الأغريق ، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس
حدود الحياة الأخرى فيامسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب
والروح . فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة . فلسفة
الحركة ، لا فلسفة السكون . عند مصر والهند السكون
وعند الأغريق الحركة ، قرأت حديثا «المقبرة البحرية»
لـ «بول فاليري» وهو المتصل اتصالا مباشرا بالفلسفة
اليونانية . فاذا هو يشير في قصيده إلى الحركة والسكون
وإذا الحركة عنده من خصائص الكينونة الواعية الفانية
والسكون من خصائص العدم الخالد غير الواعي ، وهو
يعارض زينون الأليائي في انكاره للحركة ، ويتغنى في
آخر القصيدة بانتصار الحركة أى الحياة على قصرها
وفنائها ، فهو في ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة .
ولم يفهم في رأي روح مصر والهند ، ولم يشرف على
ذلك العالم الخالد غير الواعي ، فان دون هذا الاشراف

والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمي أو منطق بشري ، هذه هي الصعوبة في فهم مصر والهند ، وهذا ما جعل الفن المصري سرّاً مغلقاً حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها ، فهي واضحة المعنى يسيرة المنال . لأنها لزمّت شاطئ الحياة .

حظ الأغر يق في كل هذا حظ العرب . العرب أيضاً أمة نشأت في فقر لم تعرفه أمة غيرها ، صحراء قفراء قليل من الماء يثير الحرب والدماء . جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة ، أمة لاقت الحرمان وجهها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجري الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا في السير والأخبار ، كان حتماً عليها ألا تحس المثل الأعلى في غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجاري ، وألوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي ، أمة بأسرها حامت بلذة الحياة

ولذة الشبع ، فأعطاهاربهها اللذة ومنحها الشبع ؛ كل تفكير
العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة ، لذة سريعة
منهومة مختطفة اختطافا ، لأن كل شيء عند العرب سرعة
ونهب واختطاف . عند الأغريق الحركة ، أى الحياة ،
وعند العرب السرعة ، أى اللذة . لم تفتح أمة العالم بأسرع
مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا
من أطايبها اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد ، كل شيء قد
يحسونه إلا عاطفة الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار
وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ! دولة أنشأتها
الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا
استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل
فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا
إحساس بالبناء ، لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ،
سواء في العمارة أو في الأدب أو في النقد ، الأسلوب العربي

في العمارة من أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن
 وإذا عاش لليوم فأنما يعيش بالزخرف ، فن الزخرف العربي
 هو الذي أنقذ العمارة العربية ، إن العمارة العربية - إلا في
 مصر - ما هي في رأيي سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة
 هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة
 ولا روعة عميقة ، إنما هي وشى كثير وجمال كجمال الحلي
 المرصع يبهز البصر ولا فكر خلفه . أما فن الزخرف العربي
 فهو في الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ .
 والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ،
 كل شيء عند العرب زخرف . الأدب نثر وشعر
 لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ،
 إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس ، فسيفساء اللفظ
 والمعنى ، و « آرابسك » العبارات والجمال . كل مقامة
 للحريري كأنها باب لجامع المؤيد ، تقطيع هندسي بديع

وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب . كذلك الغناء العربى «أرابسك» صوتى ، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء كما فى «الديتيرامب» أو «الأوركسترا» الأغريقية أو كما فى «الكورس» الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حراً بسيطاً مستقيماً . إنما هو صوت يحمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم كأنها (ستالاكتيتات) غرناطية ، لا يكاد يسمعه (القاضى الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه ، كان هذا فى العهد الأول للموسيقى إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية تخرج من القلب تعبيراً عما فى القلب ، أو رمزاً لفكرة من الأفكار ، والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزى ،

ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز ، وإلا الصلة
المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر
ولا أقل ، كما جعلوا العبارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل ،
ولقد حاول الفارابي فيما أذكر التقريب بين الموسيقى
العربية والموسيقى الأغريقية ، وكان لا بدله من الاختلاف
لأسباب قد أذكرها بعد . كذلك التصوير العربي على
جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للمكتب
والمخطوطات ولم يؤد لغير تلك الغاية «المنياتور» الفارسي .
قد يكون للدين دخل في تأخر النحت والتصوير عند
العرب غير أنني أعتقد في براءة الدين ، فإن العرب كانوا
دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ، لقد
حرم الدين الشراب ، فأحلوا هم الشراب في قصور
الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة
بأحسن مما وصفت في الأدب العربي ، لا شيء في

الأرض ولا في السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين
اللذة ، أما النحت أو التصوير الكبير فليس في طبيعتهم
لأن تلك فنون تتطلب فيمن يزاوها إحساساً عميقاً
بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل ، والوعي الداخلي
للكل في الجزء وللجزء في الكل ، وليس هذا عند
العرب ، فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل وهم يستمتعون
بكل جزء على انفراد . لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق
في الأدب ، لأنهم لا يحتاجون إلا اللذة الجزء واللحظة ،
قليل من الكتب العربية في الأدب تقوم على موضوع
واحد متصل ، إنما أكثر الكتب كشاكيل في شتى
الموضوعات تأخذ من كل شيء بطرف سريع : من
حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب
وفوائد طبية ولذة جسدية ، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم
يسقطون كل أدب قائم على البناء ، فلم ينقلوا ملحة

واحدة ولا تراجيديا واحدة ولا قصة واحدة ، العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير ، لأنها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلي طربا وإعجابا ، لهذا كله قصر العرب وظيفه الفن على ما نرى من الترف الدنيوى وإشباع لذات الحس ، حتى الحكمة ، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة : إشباع لذة المنطق والمنطق جمال دنيوى ، ولا أستغرب غضب نيتشه على إروبيد لاسرافه في هذا المنطق على حساب الموسيقى ، من المستحيل إذن أن نرى في الحضارة العربية كلها أى ميل لشؤون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه مصر والهند من كلمتى الروح والفكر ، إن العرب أمة عجيبة ، تحقق حاتمها في هذه الحياة ، فتشبهت به تشبث المحروم ، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها

عبا قبل أن يزول الحلم وتعود إلى شقاء الصحراء ، وقد
كان . إن موضع الحضارة العربية من « سائفونية »
البشرية كموضع الـ « سكيرترو » من سائفونية يتهوفن :
نعم سريع مفرح لذيذ ! !

لا ريب عندي أن مصر والعرب طرفا نقيض :
مصر هي الروح ، هي السكون ، هي الاستقرار ، هي
البناء . والعرب هي المادة ، هي السرعة ، هي الظعن ،
هي الزخرف !

مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجهها الدرهم ، وعنصرها
الوجود ! أي أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح ! إني
أو من بما أقول ، وأتمنى للأدب المصري الحديث هذا
المصير : زواج الروح بالمادة ، والسكون بالحركة ،
والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف ! تلك ينابيع فكر
كامل ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير ، إن

أكثر المدينيات يميل إما إلى ناحية الروح ، وإما إلى
ناحية المادة .

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت في وقت ما
هذا المزج بين الروح والمادة وهذا الاتزان بين عنصري
الوجود ، تلك حضارة الأغريق . نعم أعود فأرد إلى
أمة الأغريق اعتبارها ، وأعترف أنني عندما وضعتها في
كفة المادة كنت متأثراً ببعض الشيء بكلام «تين»
و «تين» عقل خلاب لكنه عقل . والعقل وحده بعيد
عن فهم الجانب الروحي للمدينيات . ما هداني إلى الحق
إلا القلب . . . إلا طول تأملي في جبهة «البارتينون» .
من دماغ ذلك الجواد الذي خلقته يد «فيدياس» فوق
هذا المعبد خرجت أفكار توحى إلى بأن أولئك القوم
كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشيء آخر غير
مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت «ميابومين» أن جاءتني

بيئة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف
 وذكر من فوري أن أصل الأغر يق جنسان مختلفان :
 اليونانيون القادمون من آسيا المعروفون عند الهنود باسم
 «اليفاناس» أي عباد «يونا» ، والدوريون الحربيون
 البرابرة الهابطون من الشمال ، وإله اليونانيين : هو
 «ديونيزوس» وإله الدوريين هو «أبولون» . وها هنا
 تفسير الأغر يق : في هذا الصراع بين ديونيزوس رمز
 الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة . . . وبين أبولون
 رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعي ، صراع بين
 الروح والمادة ، وبين القاب والعقل ، وبين النشوة
 والوعي ، ديونيزوس إله إسيوى فيما يخيل إلى ، جلب
 من الهند بلا مرأى . فغدا في اليونان ينبوع الموسيقى .
 لهذا السبب قدرت إخفاق الفارابي . فان الموسيقى
 العربية وليدة عقل واع ، لأن العرب أمة الفردية والوعي

والمنطق العقلي والظاهر المحسوس ، إن العرب من عباد
أبولون وهم لا يشعرون . إن العرب لا يمكن أن يفهموا
ديونيزوس ، تلك النشوة الدينية الجارفة التي تخرج
صاحبها من سيطرة العقل والوعى كي تصله مباشرة
بالطبيعة : إن أغاني عباد «باكوس» الحماسية في الغابات
ومزامير ال (ساتير) لشىء بعيد إدراكه على العقلية الفردية ،
شعور الانسان في لحظة أنه انقلب مخلوقا له جسم جواد
ورأس رجل أو رأس رجل وأرجل ماعز . هذا الاتحاد
بين الحيوان والانسان إحساس ليس له مثيل إلا عند
المصريين القدماء ، هذا التلاقى بين الأنواع وبين القوى
في مخلوق واحد هو عند الأولين بقية ذكرى تلك
المخلوقات الالهية البائدة التي كانت تحكم الأرض قبل ظهور
الانسان . . . مخلوقات لا هي من الاناث ، ولا هي من
الذكور ، لا هي من الحيوان ، ولا هي من الانسان

لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت . كذلك
 (الساتير) في المتيولوجيا الأغريقية رمز للانسان الأول
 ذلك الانسان الداني من الحيوان القريب من الآلهة ،
 يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع
 القوة الخالقة عند الأغريق والهنود كما هي عند المصريين ،
 ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة
 الالهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا
 بدون أن يشعر ، ويريق من ذلك النور الروحي
 والالهام الذاتي يرى به كتلة الزمن من ماض وحاضر
 ومستقبل في شبه لحظة واحدة .

تلك القدرة الخفية هي حاسة بائدة كانت للانسان
 الأول ، وفقدناها اليوم ، نعم فقدنا كل القوى الروحية
 التي منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحجبها وتتصل بها ، ولم
 يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود والمنطق القاصر .

وهانحن أولاء اليوم في هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة
منبوذة ! أين ذهب ديونيزوس ؟ وهل يبعث من جديد ؟
وإذا بعث فهل يجد من يعرفه في هذا العصر ذي الحضارة
المادية الفردية ؟ !

رجل واحد ما زال يذكر هذا الاله ويستطيع أن
يعرفه إذا ظهر كما عرف غاليلاس^(١) أصحاب الكهف !!
وهو وحده كذلك الذي يستطيع أن يستقبله باسم هذا
العصر ، هذا الغاليلاس العصري هو : « تاجور » ! إنه يتكلم
كثيراً عن ذلك الاتحاد بين الانسان والطبيعة . وعن
ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة
العظمى التي تحترق الكون . وعن ذلك الحب بين
الانسان والجماد . هذا كلام جميل . لكن هل تراه يشعر
بحقيقته ؟ يخيّل إلى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء
دولة الأغريق . بل لقد انقضت قبل أن تنقضى

(١) أحد أبطال قصتي « أهل الكهف »

دولة الأغر يق . انقضت بطغيان منطق سقراط على
روح هوميروس . انقضت بطرد ديونيزوس من
تراجيديات إيروبيد (غضبة نيتشه المعروفة) ، انقضت
بغلبة الاحساس العقلي على الاحساس الروحي ، انقضت
بانتصار «أبولون» في النهاية على . ديونيزوس» . وهكذا
اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطفأت
الحضارة الأغريقية إلى الأبد . ولم ترث أوروبا منها غير
كنوز العقل والمنطق ، وبقيت في الظلام كنوز
ديونيزوس الخفية .

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب في تطعيم
الروح بالمادة ، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوماً ؟

دمهور في مايو عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين .

النقد

... نحن متفقان ، ولا خلاف بيننا في الغاية . وهو مطلبنا . هنالك تفاصيل أفرق فيها عنك ولن أعود إليها فأنا أفرع من النظر إلى الوراء ، خشية أن أتحوّل إلى تمثال من الملح ، أو حتى إلى تمثال من الذهب . نفسى تصدف أحياناً عن الفكرة الجامدة مهما تكن خالدة ، ويحلولى أحياناً أن أنثر الأفكار عابثاً من نافذة قطار . إن رسائلنا في حقيقتها لا تعنى أكثر من إثارة الغبار في أرض نائمة مفروشة بالحصى . لسنا نصدر أحكاماً بهذه الكتب السريعة . إنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال . اتفقنا إذن . أو ينبغي لنا أن نتفق على أى حال حتى ننصرف إلى شئ جديد . إن البحث عن الجديد

هو الخلق عندي بالمجهود . ولقد فتح لنا اليوم باب الجديد
صديقنا « أحمد أمين » . قال لي ذات مساء أنه يود لو
يضع كتاباً في أصول النقد . النقد ؟ لفظ رن في أذني .
وذكرت للفور أن رسالتي السابقة إليك كان موضوعها
« الخلق » . وقلت في نفسي ما يمنع من إتمام الكلام في
رسالة ثانية يكون موضوعها « النقد » وإذا الأمر
ينكشف لي عن قضية كبيرة : أن نقد النقد كخلق خاضعاً
لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التي ذكرتها في ردك :
التيار المصري القديم ، والتيار العربي . والتيار الأوربي ؟
أم نقد النقد كالم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات ؟ أما أنا
فلن أجيب من فوري عن هذا السؤال فأنا أكتب
ولا أدري أين يحط بي القلم . دعني أولاً أنشيء على هذا
النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعني الآن بالغاية . إن
الغاية أحياناً رخيصة بجانب الوسيلة ، على الأقل في نظر

الفن . لأن الغاية في الفن لا تبرر الوسيلة . الحياة كذلك تلك القطعة الفنية التي أبدعها الخالق ، أهى شيء غير وسيلة متينة التكوين ؟ ألهما معنى في غير ذلك الطريق المبين الذي أوله ضباب وآخره ضباب ؟ خط هندسى رسم على لوح الوجود ، كيف ابتداء ، كيف انتهى ؟ لا يعنى ذلك علم الهندسة . إنه خط بين نقطتين وكفى . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة . ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم . إن الغاية لا تهم . إنما المعنى كله في الوسيلة . الحياة هى الطريق . العلم هو الطريقة . الفن هو الأسلوب . أما الغاية فلا غاية . وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوماً من الأيام ؟ محال . ما نحن إلا أسلوب الخالق . ما الكون إلا أسلوب . الأسلوب كل شيء عند كل خالق وفي كل خلق . إن الخالق أعظم من أن يجبس إرادته

الخلود في حدود « غاية » : لفظ يدل بذاته على معنى
الانتهاء . في اعتقادي أن كلمة « غاية » هي من
صنع العقل البشري الصغير . هذا العقل المحدود الذي
يضع كل شيء دائماً داخل حدود ، ويأبى إلا أن يكون
لكل شيء أول وآخر . إنما الخلود في الأسلوب . لأن
الأسلوب لا أول له ولا آخر ، فهو شيء كائن دائماً
لا علاقة له بالزمن . إن رجل الفن ، وهو المقلد الأصغر
للمبدع الأكبر ، يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية . لأن
الغاية فانية كاسمها . وإنما يعيش الفن بالأسلوب . لقد
انقضت الغاية من تشييد الأهرام ، وفنيت الغاية من
بناء البارتيونون . دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية
قد ماتت ، وبقى أسلوب الفن وحده خالداً في الأهرام
والبارتيونون . خدمة الانسانية غاية العلم في نظر البسطاء
ولو سئل عالم في ذلك لا يتسم : « مالي وللانسانية ! إنما

أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم . إنما هي لذة البحث في ذاتها . إنما هي طريقة البحث وأسلوبه . ولولا ذلك السرور الذي يملأ نفسي إذ ينكشف لعيني الباحثة عن جمال أسلوب الله لما تجشمت في سبيل العلم ، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع » . المخترعات كذلك ليست غاية العلم . هي تطبيق للعلم . إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال . لقد كان الأغريق يبحثون ولا يطبقون . فيثاغورس مثل من أمثلة الأسلوب الخالد للعلم الخالص . الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق ، وكلمة الأسلوب رجة عميقة كالبحر ، في جوفها كل كنوز المعرفة التي يصبو إليها البشر . ولعل كل ما أوتيه الإنسان من سليقة سامية منذ أول الأزمان ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق في نفس الإنسان . هذا المنطق الذي نشأنا عليه ، ونرجع إليه في

كل حياتنا ، هذا الاحساس بالنتيجة والسبب ، هذا الشعور بالتناسق والتناسب ، هذا الادراك للصلة التي تربط الشيء بالشيء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟
 أهنالك مصدر آخر غير أسلوب الخالق ؟ فتحت البشرية عينيها فألفتة حولها ، فهو موجود قبلها وقبل الخليقة كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء . إن أسلوب المبدع في صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلي لهذه الصفات كلها :
 المنطق ، ارتباط السبب بالنتيجة ، والشيء بالشيء ، والجزء بالكل ، والتناسق والتناسب . صفات هي بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فني عظيم . أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير . وما أول صورة رسمها الانسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفي بتلك الصفات . إن رجل الفن الأول هو أول إنسان عرف « المنطق » صفة فنية بعد أن كان المنطق

سليقة سامية تسبح في أنحاء نفسه ولا يعرف ما هي .
 إن المنطق الذي شيد الأهرام لهو صورة محكمة للمنطق
 الذي شيد الكون . ما المنطق ؟ ما معنى المنطق ؟ سره
 في تلك المرأة العظيمة الصافية التي تحيط بنا كالجدران :
 الوجود ، أجل مثال للمنطق في الأسلوب ينبغي لرجل
 الفن والأدب والعلم أن يطيل فيه النظر . كل شيء في
 هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة وعلى قاعدة
 واحدة . ما القاعدة التي بنى عليها الوجود ؟ هي
 القاعدة التي بنيت عليها الأهرام . هي قاعدة كل
 بناء : التماسك بين الأجزاء في كل واحد متسق .
 هذا التماسك ما عنته وكيف يكون ؟ قانون أستطيع
 أن أفرغه كما يفعل الرياضيون في صيغة بسيطة من
 لفظين : «الأخذ والعطاء» . كل شيء في هذا الوجود
 يحيا على نمط واحد ! . وكل حياة في هذا الوجود

لها مظهر واحد : أخذ وعطاء في حركات متصلة
 متشابهة ^(١) : زفير وشهيق عند الانسان والأحياء ،
 اكتساب واشعاع عند النجوم والأشياء . الأخذ والعطاء
 قانون التماسك والاتصال في حياة الفرد والمجتمع والأمة
 والأمم . وفي حياة الأخلق والسياسة والاقتصاد . وفي
 حياة المادة والروح . وفي حياة الأرض والأجرام والسدم .
 ليس في الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطى . وليس في
 الوجود شيء يعطى ولا يأخذ . كل شيء يعتمد على كل
 شيء في هذا الكون . بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا
 وكل خلق بنيان . ولا بنيان بغير وحدة شاملة . ولا وحدة
 شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر ، وبين الجزء
 والجزء . يتساءل هنرى بونكاريه في كتابه «قيمة العلم» :
 « أيقن لنا أن نتكلم في سبب ظاهرة من ظواهر الكون

(١) تعريف شخصي للحياة ، أدب الصيغة بالقياس إلى تعريف :
 « كلود برنارد » العلمى الصيغة .

ما دام كل جزء من أجزائه متصلاً بكل جزء برباط التضامن؟ إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد، بل نتيجة أسباب غير متناهية في العدد. إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست في الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله في لحظة سلفت» فالكون كله إذن إن هو إلا إناء واحد صنعته يد واحدة من عناصر متألفة وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك القانون: «الأخذ والعطاء». ليس هذا كل المنطق في صنع الوجود، إنما المنطق في تركيب ذلك القانون. ما قوام الأخذ والعطاء؟ هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات؟ ما الحال لو أن الخالق أبدع وجوداً آخر على أسلوب آخر، فصنع أناساً يعيشون بالزفير ولا يعرفون الشهييق. ومخلوقات تأكل ولا تصرف، وأجراماً تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع؟ أي اتصال يمكن

أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد ؟
 لا اتصال ، وحيث لا اتصال لا بناء . لا خلق ولا بناء
 إذن في الـكون أو في الفن بغير وحدة الأسلوب .
 كذلك في مادة الأجزاء . هل يقوم أخذ وعطاء بين
 أجسام لا تتحد في مواد البناء ؟ أى اتصال بينى وبين
 أخى وابنى لو أن الخالق صنع من عناصر غير عناصرها
 فجعلنى من يابس ورطب وجعلها من نور ونار وغاز
 وبخار ؛ أى ارتباط لو أنه جعل كل مخلوق منفرداً بمادته
 وهيئته وعناصره عن كل مخلوق . أى هرم يمكن أن
 يشيد بأحجار ، أحدها من صخر ، وآخر من عجين ،
 والثالث من ورق ، والرابع من طين ؟ لا ارتباط بغير
 تشابه وتماثل . ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة في
 التركيب . إن كل ما نحس وجوده يتحد معنا في بعض
 العناصر . بغير هذا ما كنا نعرف له بوجود . إنا نعرف

الأجرام لأن أجسامنا تعرف الحرارة والضوء والحديد .
التشابه إذن هو شرط الأخذ والعطاء . الاختلاف
كذلك شرط آخر . وهل يقوم أخذ وعطاء إلا بين
كائنات مختلفة ؟ ما الحال لو أن الخالق صنع كل شيء
ككل شيء ، فجعل كل رجل ككل رجل وكل
جرم ككل جرم ؟ طبع واحد ، ومنظر واحد ، وحجم
واحد .. أليس هذا التشابه المطلق ينفي الشخصية ؟ وحيث
لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء ، ولا تماسك ولا اتصال ،
وهل من صلة بيني وبين غيري إلا لاختلاف شخصه
عن شخصي وما عنده عما عندي ؟ وهل رابطة الأجرام
إلا لاختلافها في الأحجام ؟ الجاذبية ، الحب ، هل عليهما
إلا اختلاف النسب في القوى والأشكال ؟ إن مثل هذا
الكون المتماثل لا يمكن كذلك أن يشيد أو يوجد . مثله
مثل قصة تمثيلية أشخاصها لهم عين الاسم والجسم والطبع

والحظ يتكلمون عين الكلام ، ويتحركون عين الحركات
ويتصرفون عين التصرفات ! أى علاقة يمكن أن تنشأ
بين هذه المخلوقات ؟ وهل يشعرا أحدهم بوجود الآخر ؟
وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة «أنا» ؟ لا بد من بعض
الاختلاف بين الكائنات حتى يتميز كل كائن من الآخر
ومتى تميزت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها
الأخذ والعطاء ، سر التماسك فى كل بناء . . ها هنا إذن
قوام التناسق : « التشابه لا كل التشابه ، والاختلاف
لا كل الاختلاف ! » (يتهوفن هو الذى كشف لى منذ
سنوات عن سر التأليف بين صوتين فى عين الوقت .
فقد لحظت أنه يجمع بين صوتين متشابهين لا كل
التشابه مختلفين لا كل الاختلاف . وأدركت أن
لا تناسق بغير هذا . فلو أنه جعل الصوتين متشابهين
كل التشابه لفنى أحدهما فى الآخر ، وما ميزنا شيئاً غير

صوت واحد . ولو أنه جعلها مختلفين كل الاختلاف
لاستحال على الأذن أن تصل بينهما وهما متباعدان
متنافران . فأساس «التناسق» في الموسيقى والفن
كأساس التناسق في الحياة والكون : إئتلاف بين
الأجزاء لا كل الائتلاف ، واختلاف بينهما لا كل
الاختلاف .

جملة القول عندي أن أسلوب الله في صنع الكون
هو وحده منبع الفن ، هو وحده مصدر ذلك الإدراك
الإنساني للجمال منذ مبدأ الأجيال . أما نقاد القرن
التاسع عشر فلا أحسبهم رفعوا أبصارهم إلى هذا
الأسلوب مستلهمين . إنما هم قد خروا أمام تمثال العلم
ساجدين ، أنظارهم خاشعة ترنو في رجاء إلى شعاعين من
الكهرباء صادرين من عدسات عينية الجامدتين . القرن
التاسع عشر قرن تأليه العلم . فلقد بهر العلم العالم

بانتصارات حاسمات متواليات ، فاذا الأدب والفن
والفلسفة كلها تهرع إليه تقر له بالغلبة والسلطان . وإذا
كل شيء يطلب إلى العلم تفسيراً . وإذا العلم في نشوة
الظافر وبسمة الواثق لا يأبى أن يقضى فيما يعنيه وفيما
لا يعنيه . وإذا العلم وهو علم المادة يريد أن يتحدث في
شئون الروح . وإذا سئل عن الروح قال دونكم هذا
الطريق وأشار إلى عين الطرائق التي أدت إلى الفوز في
شئون المادة : التحليل والتركيب والتجربة والقياس
والاستنتاج والاستقراء الخ . بهت العالم لنظرية النشوء
والارتقاء ، وآمن الناس أن أصلنا من ماء وخلايا حية
وحیوان ظل يسمو في المرتبة على مدى الأزمان حتى بلغ
القرود جد الانسان ! نظرية جميلة ، خلب جماها اللب على
الرغم من بشاعة ذلك الجد الغول . أما صدقها فجاز من
حيث المادة والأجسام . ولكن .. وهنا القضية: أتصدق

هذه النظرية على الروح أيضا وشئون الروح ؟ الاحساس بالجمال : أيخضع أيضا للنشوء والارتقاء ؟ نعم ، نعم ، نعم . هكذا قالت المدرسة الانجليزية (سبنسر ، جرانت ألن رسكن) . وكان لا بد لهذه العقول التي فتنتها نظرية التطور في المادة أن تبرر للناس نظرية التطور في الجمال . وعجب الناس لنظريات علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحياة وأبحاث (لا مارك) في تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام ، فقامت المدرسة الفرنسية (هبوليت تين) تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن : الوحي فيها والالهام : مقاييس الحرارة وموازن الأحجام !

بل إنني لأرى أصبع العلم قبل ذلك بقرن يقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها في الجمال (عمانويل كانت) . ولم يكف العلم هذا التوجيه والتأثير بل تناول بيديه

في هذا العهد الحديث جسم الجمال ، وأعمل فيه المشرط
والمسبار (علم النفس الحديث) . قضى الأمر ، وخرج
الجمال من حدائق الفلاسفة إلى معامل العلم . . . !

لست أزرى على طرائق العلم . فهي وسائل البشرية
التي لا تملك غيرها . وأذكر يوم كنت أرصد وقتاً للتفكير
في هذه المسائل أني بسطت أمام نفسي هذا السؤال
الساذج : الحيوان ما علمه بالجمال ؟ حصان بين مهرتين
إحداها جميلة مليئة شهباء والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء
إلى أيتهما يميل ؟ ما ترددت يوماً أن أقول في ثقة واقتناع
« إلى الجميلة يميل ، ما وجه الترجيح ؟ لست أدري ،
وحبذا التجربة فهي الحكم الفصل ! » . لكنني يوماً
كنت أفكر تفكيراً صرفاً في أبراج عاجية اعتدت أن
أوى إليها للتفكير الهادئ ، فأين لي بالخيول والأفراس
أجرى عليها التجارب ؟ فما أنذا أقر بأن التجربة وسيلة

بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة . وأقر بأنني شعرت يوماً بالحاجة إلى ممارستها في شئون الجمال . غير أنني على الرغم من هذا لا أحب أن أعتقد ببساطة أن نظريات العلم في شئون المادة تصدق دائماً في شئون الروح . لا شيء يستطيع أن يقنعني بأن احساس الجمال وليد تطور ونشوء . بي رغبة أن أصبح بغير دليل في يدي أن إدراك الجمال ولد كاملاً في قلب الانسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب الله فوعاه . إنني أخشى أن تقع في الغلط إذ نطبق نظريات المادة في مسائل الروح ، وهل تستطيع أن تجيز قول رسكن وجرانت ألن في الألياذة :
 « . . . ما كان يعني الأقدمون بالطبيعة ولا يجملها إلا حين يتصلان بعيش الانسان . ففي الألياذة ما كان يوصف منظر طبيعي لذاته ، بل لمنفعته للانسان ، كأن يكون مكاناً خصيباً يفيض بالحنطة أو تكثر فيه الجياد . ما كانت

الطبيعة سوى إطار للحوادث والأشخاص ، لا إنها لذاتها محل للوصف . إن الطبيعة لم تحب لذاتها إلا في العصر الحديث ، حيث استيقظ الاحساس بها ، احساس صاف خالص لا تشوبه شائبة النفع أو المصلحة .. ماذا أقول في هذا الكلام ؟ أهو جهل ؟ شاعر الأقدمين ؟ أم تورط في تطبيق نظرية التطور والنشوء ؟ أنصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا لدنوعهم من الحيوانية ؟ أنصدق أن «هومير» لم يحس جمال الطبيعة لذاتها ؟ أهذا رسكن يقول هذا الكلام ؟ أما أنا فقد مضى كلامي في الطبيعة والقدماء ، ورأي الذي أبديته في رسالتي الأولى أن الأقدمين كانوا أقرب منا إلى الطبيعة وإلى فهمها . لقد كان الأقدمون يحسون أنهم جزء من الطبيعة ونعم من أنعامها . أما رسكن وألن أو الانسان الحديث فلا يحس إلا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة

وعن كل شيء . دليلي فن القدماء من مصريين وأغريق .
 أهذا فن قوم لا يحسون الطبيعة لذاتها ولا يدركون
 قوانينها وأساليبها ؟ إلى هذا الحد يصل الانقياد إلى
 النظريات ؟ من أجل هذا لا أريد التمكين للعلم حتى
 يجلس على عرش النقد دون شريك . أحب طرائق العلم .
 لكنني أخشى نتائج العلم . فلنرتفع بالروح قليلا . لست
 أريد أن أضع الروح تحت مبضع العلم ، رهبة مني أن
 يشقها فيجدها غلافا أجوف . وإني لا أنسى يوم شاهدت
 تشريح جثة آدمي للمرة الأولى . أي قلق يومئذ مزق
 إيماني بقيمة الانسان ! كلا . إني كرجل من رجال الروح
 لا أريد أن أفجع في خير ما أعيش به وله . يريح نفسي
 دائما أن أقول إن عقل العلم لا يكفي . ولا بد دون إدراك
 الجمال والروح من العودة إلى القلب . أريد ألا يخرجني
 العلم من ذلك الايمان الذي كان يضيء في قلوب المصريين

القدماء . إيمان قريتهم من الخالق ، فاذا هم يبصرونهم العميقة
العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أساليب الله والنفوذ
إلى قوانین إبداعه . إن أقصى العلم الايمان . أحب ذلك
العلم المؤمن الشاعر الذي عرفه أيضا الفلكون العظيم
في القرنين السادس عشر والسابع عشر : كوبرنيك ،
وجاليليه وكبلر ، آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج
بالايمان ، كانوا ينظرون إلى الكواكب كما نظر إليها
من قبل المصريون الأقدمون . لا بعين العقل وحده ، بل
بعين القلب أيضا . كانت السماء والنجوم في نظرهم مخلوقات
حية . كانوا أيضا يحسون في كتلة النجوم وفي هذا الكون
بأكمله الروح الخالقة ويد المبدع الأعظم . ما أروع هذه
العبارة من كبلر ، فيها تلخيص جميل لكل ما يملأ نفسى :
« .. كل الخليفة ليست إلا سمفونية عجيبة في مجال الروح
والأفكار كما هي في مجال الأجسام والأحياء . كل شيء

متماثل مرتبط بعري متبادلة لا تنفصم . كل شيء يكون
كلا متناسقا . إن الله قد خلقنا على صورته ، وأعطانا
الاحساس بالتناسق . كل ما يوجد حي متحرك ، لأن
كل شيء متتابع متصل . كل كوكب وكل نجم إن هو
إلا حيوان ذو نفس . إن روح النجوم هي سر حركتها
وسبب ذلك الحب الذي يربط بعضها إلى بعض ، وتعليل
ذلك النظام الذي تسير عليه الظواهر الطبيعية .. « أولئك
رجال ساروا في بيداء العقل دون أن ينسوا دليل القلب
أولئك هم العلماء العظام ! أرى أنك قد استشففت رأيي
بعد هذا التمهيد . نعم ولا أخشى أن أجيب الآن عن
السؤال فأقول إن التيارات الثلاثة التي ذكرتها تصدق
أيضا في النقد كما تصدق في الخلق . أما التيار الأول في
النقد فهو المرتكز على العلم . ولقد وصل إلينا هذا التيار
بالفعل وتأثرنا به . وإن بعض كتب النقد التي ظهرت

أخيراً في مصر الحديثة تم عن هذا الاتجاه العامي . وهو أمر لا بأس به ، بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن نقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا إذا أردنا أن ننشئ لآدابنا طريقة شخصية كاملة في النقد . فأما التيار المصري القديم فهو النقد المعتمد على الذوق أي سليقة المنطق والتناسق وهو عند المصريين القدماء سليقة المنطق الداخلي للأشياء والتناسق الباطن أي القانون الذي يربط الشيء بالشيء ، أي جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسي الخفي وتلك القوانين المستترة التي قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار ، جمال عقلي داخلي ، كذلك أسلوب الخالق لا يعني دائماً بالجمال الظاهر وحده في خلق الطبيعة . فأى جمال لجبل المقطم ؟ إن الجمال الظاهر نسبي لا يقدره غير الإنسان إنما المنطق الداخلي للأشياء هو كل جمالها

الحقيقي ، هذا الادراك للجمال الخفى فطن إليه المصريون
القـدماء يوم صنعوا «الأهرام» ، فهم لم يرموا إلى
الجمال الظاهر الذى يسر العين . إنما أرادوا أن يصنعوا
بأيديهم البشرية ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، فى روعتها
وضخامتها وقوة تأثيرها . وقد تمت المعجزة . وإذا
الأجيال على مدى آلاف السنين تعبر الأهرام عبورها
جبل المقطم سواء بسواء . وكأنما اختلط الأمر فى ضمير
الزمن وضمير البشرية فارتفع هذا « الخلق » الأدنى
إلى مقام الظواهر الطبيعية ! أولئك قوم أرادوا أن
يقلدوا أسلوب الله فى عظمته ودقة قوانينه . فأعانهم الله على
ما التمسوا ، وكشف لهم عن بعض أسرار موطرائقه ! هذا
المقياس المصرى القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد فى حياتنا
الفكرية أو فى أحكامنا الفنية . أما التيار العربى القديم
فهو النقد الذى قوامه ذوق الحس . أى سليقة المنطق

الظاهر والتناسق الخارجى . الجمال عند العرب هو الجمال
الظاهر الذى يسر العين ويلذ الأذن . أنستطيع أن تتخيل
العرب تبنى الأهرام أو تقدر فيها جمالا ؟ لقد جاء العرب
مصر وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسماؤها ولم يروا فى
الأهرام إلا شيئا قد يحوى نقودا مخبوءة ، أما بناؤه
فشئ لا يحسب فى الفن . إنما الحسن عند العرب حسن
الهيئة قبل كل شئ . المساجد كالعرائس تكاد تخطر
حسنا بزخارفها ، زينة للناظرين . بغير هذا فلا عمارة
ولا فن . الشعر رنين لذيذ ، وخيال جميل ، ومعان لطيفة
والفاظ مختارة ظريفة ، بغير هذا فلا شعر ولا فن .
الجمال عند العرب جمال إنسانى . والفن عندهم شئ صنع
الإنسان لنفسه ولذته . الفن العربى القديم فن إنسانى
دنىوى . والفن المصرى القديم فن إلهى دنى . لهذا
اختلفت المقاييس فى الجمال بين الفنانين . أحدهما يعنى

بالتناسق الشكلي الذي يروق الانسان ، والثاني يعنى
بالتناسق الخفى بغير التفات الى الانسان . ولعل المقياس
العربي القديم هو في مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم في
قضايا الشعر والأدب .

هذا المقياس العربي ذو الأبرة الدقيقة عجيب في
تسجيل كل انحراف عن منطق الألفاظ . إنما هنالك في
اعتقادي منطق آخر مستتر ، أمره يعنى المقياس المصري .
إني يوم قلت بمزج الروح بالمادة في آدابنا كان
يجب على أيضاً أن أقول بوضع المقياس المصري في النقد
بجانب المقياس العربي . . .

كوم حماده في سبتمبر عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين .

بين الخالق والناقد

... حقيقة أذكر أنك كنت عازماً على نقد
كتابي «محمد» ، فما الذي منعك ، وأذكر أيضاً أنك
أفضيت الى بخوفك من يسىء بعض رجال الدين فهم
مرادك فأضار أنا بذلك ، وهى عاطفة نبيلة حمدتها لك .
على أنى فيما أذكر أيضاً قد شجعتك على المضى فى نقدك
وهو فى جملة لا يؤيدنى . بل انى قد وافقتك عليه معجباً
بفراستك ، مقدراً لبراعتك فى الوقوع من فورك على
المواطن التى يجوز فيها النقد والكلام . فأنت ترى أن
المؤلف لم يغضب ، بل ابتسم واعتبط ليقظة الناقد . فى
الواقع انى لست أومن كثيراً بتلك الأسطورة التى
تروى عن غضب المؤلفين . واسمح لى أن أتكلم بلسانهم
فأقول إن هذا الغضب لا يجد سبيلاً الى نفس الكاتب

إلا إذا شعر من ناقده بعزوف عن الحق والجد ، ونزوع إلى الخط من القدر مبطن بسوء القصد . فالناقد الذي يحترم شخصي ويهدم عملي لا يغضبني . لأنني أعلم أن الأديب لا يهدمه النقد . فهو كائن ممتاز لا يهدم ، ولا يقبض إلا باذنه ، ولا يقضى عليه إلا بإرادته . إن الأديب لا يموت مقتولا ، بل يموت منتحرا . ومع ذلك فاني لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أي حال ، فإن الغضب علامة الضعف الآدمي . ولا شيء في الوجود أقوى من الابتسامة . ولكن ، من ذا الذي أعطى القدرة على الابتسام الصافي الجميل في كل موقف وفي كل حين ؟ أهو الجبار وحده ؟ ألا ترى معي أن الجبروت إنما هو الصفاء ؟ (إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم ، فابسم للقدرة إذا بطش بك ، ولا تبطش بأحد) . . . تلك كلمة لعمر الخيام ، وضعتها في صدر

كتابي (عصفور من الشرق) الذي لم أكتب منه في سنوات
ثلاث أكثر من ثلاثة فصول . وإنك لتعجب إذا قلت
لك إن هذا البطء أو هذا العجز مرجعه علة واحدة قد
انكشفت لبصيرتي آخر الأمر : عدم استكمال الصفة
العليا التي يرتديها بعض رهبان الفكر كما ترتدى
المسوح : الصفاء .

إن كنت من رأيي في كل هذا فإن لي عندك حاجة :
أنت تنشر معي تلك الابتسامة بين الأدباء ، فإن الأدب
شيء جميل ؛ هو جنة لا صخب فيها ، وهو معبد
لا تدخله الأحقاد . إن أعجب ظاهرة في أدبنا أنه لا توجد
فيه صداقات عظيمة جدية أن يتحدث عنها تاريخ الأدب ؛
تلك الصداقات التي نراها في آداب الحضارات الكبرى
قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بهال .
ما الذي يعوزنا نحن ؟ أهو شيء في الخلق ؟ أم هو ضعف

في النفس ؟ أم هو نقص في الثقافة ؟ لست أعلم . إنما
الذي أعلمه : أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب
والفكر ، هي أظهر دليل على نضوج هذا الأدب ،
وهذا الفكر .

القاهرة في يونيو عام ١٩٣٦ من رسالة إلى أحمد أمين .

منابع الفن المصرى

فى عام ١٩٣٣ عقب نشر كتابى « أهل الكهف »
جاءنى أديب صحفى يحادثنى فى شأنه ويسألنى فيما حملنى
على اختيار موضوعه ، فأجبتة :
— حملنى على ذلك شىء واحد : الرغبة فى كتابة
مأساة مصرية على أساس مصرى . إنك تعلم أن أساس
المأساة الاغريقية هو « القدر » . هو ذلك النضال الهائل
بين الانسان والقدر ! فهل تعلم ما أساس المأساة المصرية
كما أتصورها ؟ أساسها : « الزمن » ؛ أساسها ذلك النضال
الهائل بين الانسان والزمن . اقرأ « كتاب الموتى »
تحس ذلك للفور . عند الاغريق هو « القضاء والقدر »
وعند المصريين هو « الزمان والمكان » . لكل من
الشعبين تنين مخيف كتب على الانسان قتاله ! وأنت

تري أن « تنين » المصريين وهو « الزمان والمكان » ،
 رأسه في هذه الأرض وذنبه في العالم الآخر المجهول .
 نعم إن مصر لا يمكن أن تفكر في غير الخلوص إلى
 حياة أخرى . دائماً وراء الطبيعة . دائماً الفلسفة الدينية
 دائماً ذلك الفزع من الموت وذلك الأمل في انتصار
 الروح على الزمان والمكان ! وذلك الانتصار إنما هو في
 « البعث » . . . بعث لا إلى عالم آخر لا يعرف الزمان
 والمكان . وإنما بعث إلى عين هذا العالم ونفس هذه
 الأرض بزمانها ومكانها . ولقد شيدوا الأهرام لتقوى
 على هذا التنين . حصون الروح في حربها الخفيفة مع
 عناصر الفناء الآدمي . التحنيط كذلك اختراع آخر ولدته
 ضرورة الدفاع في تلك الحرب الضروس ! أين تلك
 الحرب من حرب طروادة ! لم تكن مصر في حاجة إلى
 هوميروس منها يسطر أخبارها . لأن صليل تلك الحرب

لا يوصف من قلم بشرى . إنها صيحات الروح تدوى
 طول الأبد من بين سطور «كتاب الموتى» . إن أعظم
 مأساة لم تدون ولا يمكن أن تدون : المأساة المصرية ! .
 وبعد هذا تسألني ما الذي حملني على كتابة «أهل الكهف»
 إنها صورة ضئيلة وصدى خافت لتلك المبارزة بين «الزمن
 والانسان» وفي قصتي «شهر زاد» صورة أخرى
 للمبارزة بين «الانسان والمكان» .

— إذن أنتم تقولون باستيحاء الفكر المصري

القديم ؟

— إنى أقول باستيحاء كل ما هو مصرى .

— وكيف نميز ما هو مصرى عما هو دخیل على

مصر وقد دخلت مصر وتداولتها حضارات مختلفة ؟

— فى مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلا منذ عهد

الأساطير الأولى حتى اليوم . ذلك لأنها متصلة بصميم

هذه الأرض ، ومستوحاة من نفس طين هذا الوادي
الخصيب ، ومن نفس هذا النيل الخالد . إن أفكار
الانسان وعقائده ودياناته وخرافاته إنما تولد من مظاهر
الحياة التي حوله . ما اليونان بأساطيرها وفلسفتها بغير
البحر المتوسط وجزر اليونان ؟ وما أساطير النرويج بغير
الغابات وبحر الشمال ؟ وما فلسفة الهند بغير نهر الجانج
المقدس وأدغال الهند ! ؟ . كذلك هل يتصور تفكير
مصرى بغير هذه الأرض الخصبة البطحاء التي تلد الخير
في كل عام دون أن يصيبها العقم أو يبدو عليها الهرم ؟
شبابها خالد . هذا الشباب الذي تفهمه مصر حق الفهم .
وها هي ذى آثار مصر منذ الأزل من تماثيل وصور
على حيطان المعابد هل شاهدت فيها تمثالا واحداً يمثل
إنساناً هرمياً ؟ كل تماثيل مصر وصورها تمثل الشباب
لأن كل مظاهر الحياة في مصر من أرض وماء وسماء

فتية قوية رقيقة تتجدد وتبعث وتوحى بالحياة الدائمة .
 إن العمر لا وزن له في مصر . آلهتهم وملوكهم وكهانهم
 وعبيدهم حليقون نخفاء لا يبدو عليهم عمر ولا سن ولا
 أثر واحد من آثار الزمن . شباب وفتوة وقوة كهذه
 الأرض السوداء البطحاء ، التي ما وخطها قط المشيب .
 إن الزمن لا وزن له عند مصر ، خوفاً منه واحتقاراً له ،
 أو حفيظة عليه ؛ كل ذلك جائز . إنما الواقع أن مصر
 كانت تؤمن إيماناً عجيباً بانتصارها على الزمن رمز
 «العدم» بالبعث الدائم .

فها هو ذا النيل في انتظام يحيا ويموت مرة في كل
 عام . موت وبعث . وبعث ثم موت . هكذا دواليك
 كساقية النيل ذات الجرات الحمراء ! من هذا النيل خرجت
 أساطير البعث . وفي هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب
 نشأت فكرة الخلود وقاتل «العدم» تشبهاً بهذه الأرض

المحبوبة التي لم تخلق الآلهة جنة سواها . فهي المرجع
والمآب . يموتون عليها ويعودون إليها . موت ثم حياة
ثم موت .. وهكذا إلى أبد الآبدين . لا الموت يفنى ولا
الحياة تفنى . شأن هذا النيل في حياته وموته .

تلك فكرة أساسية من أفكار مصر الثابتة .
ولدت في العهد الفرعوني الوثني الأول ، فهل تراها
تلاشت مع العهد المسيحي أو مع العهد الاسلامي ؟ كلا
لم تتلاش . ولم تكن مصر تقبل اعتناق المسيحية أو
الاسلام ديناً لها لو لم تجد في هذين الدينين فكرة البعث
في جوهرها ولبها . ولقد رفضت مصر دين إسرائيل
خلوه من تلك الفكرة التي لا تعيش مصر بغيرها ،
البعث هو نشيد مصر الخالد .. يغنيه النيل في كل عام ..
والنبات والطيور والسماء . والشعراء !

— إذن البعث والزمن من أفكار مصر الثابتة

التي تصلح وحيًا للأدب المصرى الحديث فى رأيكم ؟
- بلا شك ، وفكرة أخرى : قوة القلب . بغير
قوة القلب أى قوة الايمان والحب ما كانت مصر
تستطيع أن تنشئ هذا الفن العظيم الذى انتصرت به
فعلا على الزمن ولا تزال تنتصر به عليه فى كل جيل .
وقلب الفنان المصرى الذى نحت تمثال « شيخ البلد »
أو تمثال « نفرتيتى » ما زال ينبض بالحياة ، ويحس حياته
رواد متحف اللوفر ومتحف برلين !

- ومصر فى عهد المسيح والاسلام ؟
- مصر فى العهد المسيحى كان فيها أدب قصصى
دينى صوفى رائع تلمس فيه الشخصية المصرية بأفكارها
الثابتة ووسائلها الخاصة أكثر مما تلمح فيه الطابع
الرومانى . ومصر الاسلامية شيدت مساجد ضخمة
المظهر قوية البنيان بسيطة التفصيل ، لولا أسلوب البناء

الاسلامى خلقتها معبداً فرعونيا في عظمة الأثر الذى تحدثه
في النفس . ذلك أن فن العمارة الاسلامى يسمو بالزخرف
لا بالبناء . والفن الفرعونى المعمارى يتفوق بالبناء
لا بالزخرف . لهذا السبب كان الفرق ملحوظا بين بعض
مساجد مصر الشهيرة «قلاوون» و «السلطان حسن»
الخ الخ ، وبين المساجد الأخرى في غير مصر ، وكذلك
كلما استوحى الفنان المصرى تاريخ قلبه وأرضه ، أنتج
فنا شخصياً لا صلة له بغير هذا القلب وهذه الأرض .
وقس على ذلك الشعر والقصص الذى ظهر في مصر
الاسلامية مفعما بروح هذه الأرض لا بروح البادية أو
وحى أمة أخرى .

— وما قولكم في الأسلوب الأدبى الذى يميز مصر
ويطبعها بطابع خاص ؟

— الأسلوب هو مزاج الفنان وطبيعته ووسيلته

الخاصة في إظهار مكنون فكره أو هو الشخص كما قال
« بوفون » ، هذا صحيح إلى حد ما : إن الكاتب
إذ يخلو إلى نفسه ، وقلبه ويترك التصنع والتقليد يستطيع
أن يهتدى إلى أسلوبه . لكن لا تظن الطريق هيناً :
ذلك الطريق الوعر الطويل بين الإنسان وقلبه ! إن
القلب البشري لا عمق من أن يستكشف قراره من
أول نظرة ، إن قلب الإنسان بئر سحيقة رسبت فيها
تجارب جنسه وأمته آلاف السنين طبقة فوق طبقة .
فعلية إذن أن ينزل طبقات هذه البئر ، وهأنذا أعود بك
إلى نغمتي الأولى : حتى الأسلوب ينبغي لنا أن نبحث عنه
في أرض مصر وفنها على مدى الأزمان . ولقد سبقنا إلى
ذلك البحث أمم الغرب مع الأسف . الفن الحديث كله
من تصوير ونحت وعمارة انطلق يبحث عن وسائل جديدة
للتعبير فوجدها في مصر القديمة : وجد البساطة في

التخطيط . وجد طريقة تركيب الأشكال المختلفة على قواعد هندسية «الكوبزم» ، وجد وسائل التعبير عن حقائق « الشكل » التي تخفى على العين العادية . وجد أساليب الحركة والاضاءة في التماثيل والأعمدة مما لا نظير له في قوة الأداء وبساطته . كل ذلك وجدته الغرب وشيد على أساسه فناً جديداً . ونحن نستطيع أن نجد أكثر من ذلك لو بحثنا طويلاً وتأملنا ملياً . إن كنوز قلوبنا العميقة لا قاع لها . وهي أدنى إلى أيدينا من الغرباء .

— وأى أسلوب اخترتموه لأهل الكهف ؟

— لست أعرف . على النقد أن يجيب . إن

المؤلف لا يقع في الخطأ إلا عند ما يحاول الكلام في عمله . إن الانسان لا يستطيع أن يرى ملامحه أو يصفها إلا بالمرآة والنقد هو المرآة .

— وهل ستقدمون أهل الكهف للتمثيل ؟

— إنى لم أكتب هذه القصة للتمثيل ، ولو كان
فى مقدورى معالجة الفكرة فى قصيدة أو فى صورة
زيتية أو فى قطعة موسيقية لفعلت . إنما كانت وسيلتى فى
إخراج الفكرة هى الحوار . ذلك القالب الذى أحبه بين
قوالب الأدب . ومع ذلك أليست القصة التمثيلية أحيانا
شكلا من أشكال الأدب . لها كيان مستقل متسق
كالقصيدة والصورة والهيكل الهندسى : ذات جمال فى
التركيب وتناسب فى الفكرة يوحيان بالذقة الفنية لذاتها .
إن التمثيل أحيانا إن هو إلا مجرد تفسير وليس ضرورة
أو غاية أو إتماما للقصة التمثيلية . إن مآسى سوفوكل ،
ودرامات كاليداسا الهندى وفاوست تأليف جوته لهى
كلها أدب صراح . تدخل على النفس بمجرد قراءتها لذة
فنية كاملة بغير حاجة إلى مسرح وممثلين . ولقد أعدت
النظر أخيراً فى مأساة «هيبوليت» لأىروبيد ففضلتها

على « فيدر » لراسين . مع أن راسين راعى مقتضيات المسرح في عهده وحذف « الكورس » . فوجدت أنا الجمال في هذا « الكورس » المحذوف ، ووددت لو أستطيع إدخال (الكورس) في قصة أكتيها . نعم (الكورس) الآن في أواخر القرن العشرين !! سأعيد إليه اعتباره يوماً . إنما في لون آخر وبروح أخرى مستمدة من (كتاب الموتى) ، وأوراق البردي ^(١) .

(١) أرسل إلى أخيراً « أتين دريوتون » مدير مصلحة الآثار المصرية بحثاً خاصاً بالماساة في مصر القديمة ، ضمنه ترجمة دقيقة لأجزاء من حوار أبطال قصة مقدسة وكلام « الكورس » كما وجد حديثاً في بعض أوراق البردي . وقد أدهشني جمال القطعة ، كما إنها قد كشفت للعالم دريوتون ولبعض زملائه من مشاهير علماء الآثار في العالم عن منبع « المسرح الاغريقي القديم » ، إذ تبين أن هذه القطعة التمثيلية تشمل قسمين : قسم كلامي وقسم غنائي ، وأنها كانت تمثل في المواسم الدينية ، فالغناء إذن والكورس والرقص الدين الذي عزى إليه « نيتشه » أصل التراجيديات الاغريقية ، إنما يرجع إلى أصل أقدم منه هو « التراجيديات المصرية القديمة » .

نعم إن (الكورس) الخفي الذي أسمع همسه الغريب ،
وأهاته المتقطعة ، ونوحه المخنوق ، ثم هدوءه العميق ،
ثم نهوضه وصياحه وإعلانه الانتصار ! . . . هو شيء
بعيد عن المسرح قريب من المعبد ، عسير على الكلام
تفسيره ، مستطاع للموسيقى وحدها التعبير عنه .

الثقافة الشرقية

إذا كنت قد أطلت الكلام في روح مصر وراث مصر ، فما ذلك عن رغبة في حبس تفكيرنا في حدود قومية ضيقة . إنما أنا أرمي إلى غاية أبعد وأرحب . إني أريد تدعيم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية . وهذا الغنى لن يأتي إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق في أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الأرض التي يحيا عليها كل كنوز ماضيها . حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلئ القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله في معين واحد مشترك ، وقدم إلى الانسانية باسم : «الثقافة الشرقية» . على أن الذي يدعو إلى الأسف والألم أن بعض المفكرين من

الشرقيين أنفسهم يشكون ويشككون في حقيقة وجود «الثقافة الشرقية» أولئك هم الذين قد بهرتهم انتصارات «الثقافة الغربية» المسيطرة الآن على العالم ، فأعمتهم أشعتها الساطعة ، وأقعدتهم وأسجدتهم يسبحون بمجدها ويفركون أعينهم التي لا ترى شيئاً غير هذا النور الكثير . ذلك هو العمى والعقم والكسل . كذلك لا أقر تلك الفئة الأخرى من الشرقيين الذين يظنون أن التعمس للثقافة الشرقية معناه الجلوس متدثرين في أطوار حضارات بالية يصعرون بخدودهم ويصيحون بألفاظ نكرة مضحكة ونخر كاذب . ذلك أيضاً هو العمى ، والعقم ، والكسل . إنما إنهاض الثقافة الشرقية لا يكون إلا بنهوض الشرقيين إلى العمل فيبدأون أولاً بالجرى واللحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية . تلك الثقافة التي أضافت اليوم كثيراً على ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى :

فثقافة الغرب خصوصاً في العصر الحديث لا تهمل شيئاً أنتجه العقل البشري في أى عصر من العصور وفي أى بقعة من البقاع . فالأوروبيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية (شوبنهاور ونيتشه) ، وحتى من الثقافة العربية والشعر العربي (جوته وهايني) ولكنهم طبعوه بطابع فئهم وتفكيرهم . ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاعتناء بلون واحد أو الوقوف عند حد معلوم . فالأوروبيون دائماً يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصبوه في قلوبهم .

فأوروبا إذن على ثروتها وغناها الثقافي اليوم لم يخطر ببالها قط أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى . إن الفكر البشري ليس له حدود «دولية» إنما هنالك المزاج الخاص والطبيعة الخاصة التي تكيف تلك الثروة

المباحة التي تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة .
 ان الحضارة الأوربية في الحقيقة لم تخلق بيديها خلقاً
 كل هذه القوالب المعروفة في آدابها وفنونها ولا كل هذه
 النظريات الشائعة في فلسفتها وعلمها . فان كثيراً من
 هذه القوالب والنظريات مأخوذ عن الشرق في حالته
 الأولية . ولكن الأوربيين زادوا عليه وأضافوا إليه
 وأخرجوه ممهوراً بامضائهم ومطلياً بشخصيتهم . وهذا
 في الواقع عمل كل حضارة من الحضارات . ولا نستثنى
 من ذلك الحضارة الإسلامية نفسها في عصورها الزاهرة
 فما هي إلا جماع أفكار وثقافات وحضارات أمم مختلفة
 صبها الإسلام في قلبه وجعل منها لوناً خاصاً .

فالثقافة الشرقية إذن لا يمكن أن تكون اليوم
 بمعزل عن ثقافة أوروبا ولا أن تغمر عينيها عن هذه
 الثروة الهائلة ، فلنمد أيدينا إذن غير مقيدتين بسلاسل

التقاليد أو العادات أو العقائد ، فنأخذ كل شيء ، ونهضم كل شيء ، ثم نخرج على روحنا القديم كل في بلده ، فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ، إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألفة لم تستخرج بعد ، فالغرب على نشاطه الفكري ونهمه الذهني لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق ، إذ لا بد أن تكون معاوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعية لا تكشفها غير طبيعة الشرق وغرائزه وتجاريب حكمته المتراكمة في أعماق نفسه على مدى آلاف السنين .

فاذا تم لنا ذلك ، فاننا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطابعنا الخاص ؛ على نحو ما حدث عندما اختلفت طبائع الدول الشمالية في أوروبا عن طبائع الدول الجنوبية ، ففرعت عن الثقافة الواحدة ثقافتان هما

الثقافة اللاتينية والثقافة الانجلوساكسونية . ثقافتان لا تختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية ، وإنما تختلفان في الطابع والمزاج والروح . فاذا كان في مقدورنا نحن أن نضيف إلى هاتين الثقافتين العظيمتين ثقافة ثالثة لا تختلف عنهما في مبلغ ثروتها ومادتها وإنما تختلفان فقط في الطابع والطبيعة والروح ، ثقافة ثالثة حية نامية جميلة عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب فكأنه يرى شيئاً جديداً مستقلاً ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، فاننا نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، وأمكنا أن نساير الفكر البشري في تطوره وأن نساهم بعملنا ومواهبنا في بنائه العظيم ، وأن نظفر أخيراً باحترام هاتين الثقافتين الحيتين القائمتين ، ذلك الاحترام الذي تنظر به إحداهما إلى الأخرى . ويسترد (الشرق) عندئذ اعتباره في نظر (الغرب) .

كتلة « الروح الشرقي »

سألني سائل عن رأيي في الوحدة العربية . فأحلتته
على آرائي السابقة . وقلت له إنني لم أغير موقفي . فأنا على
الرغم من رغبتني في تكوين شخصيات فكرية مختلفة
وحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية
والشرقية . فإني أحب أن نتذكر دائماً أننا إزاء الغرب
لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغي أن نحافظ عليها . فأوروبا
اليوم عندما تبين لها خطر الحروب التي تقوض
المدنيات ، قد ارتاعت وأرادت أن تحافظ على مصير
ما تسميه (الروح الأوروبية) ، فأقامت من أجل ذلك
المؤتمرات دعى إليها كبار مفكري الأمم الأوروبية
ليدرأوا الأخطار التي تهددها الروح الأوروبية المريض .
ونحن الشرقيين لنا من غير شك كذلك ما نستطيع أن

نسميه (الروح الشرقي) . إن طابعنا الفكري وطريقة
نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدها ، وإحساسنا بالجمال الذهني
ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا في
التعبير عن حقائق الأشياء ، كل ذلك ينم عن عقلية
خاصة وعبقورية مستقلة لا ينبغي أن تتحلل وتتلشى تحت
طغيان موجة أقوى ! . فاذا نادينا بالوحدة العربية ، فانما
ذلك لندعم كتلة (الروح الشرقي) أمام كتلة (الروح
الغربي) .

احياء الثقافة العربية القديمة

سألتني مجلة عربية عن هذه المسألة فقلت :
تسألونني كيف نعمل على احياء ثقافتنا العربية
القديمة ؟ وهل ماتت هذه الثقافة حتى نطلب احياءها ؟
ان الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم في
ثقافات أخرى وحضارات أخرى . فالثقافة العربية القديمة
قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن
الذي امتصت وهضمت . فمادة الثقافة لا تنعدم ولكنها
تتحول إلى ثقافة جديدة وتدخل في تركيب حضارة
جديدة . فالقول باحياء الثقافة العربية القديمة أو الثقافة
الاغريقية القديمة قول لا أستطيع أن افهم له معنى .
فالحضارات إنما تقوم على الحضارات . وهيكل الحضارة
القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات

سابقة . فلو فرضنا المستحيل وأردنا أن ننزل طبقات
ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها الغابرة ، فإذا
نجد فيها غير شيء أولى إلى جانب ثقافة العصر الحاضر !
أما إذا كان المقصود من كلمة الأحياء لا أحياء الثقافة
القديمة بعينها وحالتها وكميتها إنما المقصود أحياء المجد الغابر
والمكانة والازدهار الذي لفت الأنظار إلى الثقافة العربية
القديمة في عصرها فهذا شيء آخر وهذا أمر ممكن لو أننا
عملنا واجتهدنا في سبيل أحداث نهضة ثقافية يشعر
بهزتها العالم المتحضر . ووسائلنا في هذا هضم كل ثقافة
موجودة قديمة أو حديثة وإخراج ثقافة جديدة ثم عن
روحنا وشخصيتنا الشرقية ، تستطيع أن تقف جنباً إلى
جنب مع الثقافتين العظيمتين الحاضرتين : اللاتينية
والانجلوساكسونية .

أما الوسيلة الفعالة لتوليد ثقافتنا الشرقية الجديدة

فإن الطريق إليها هو الطريق الذي اتبعته كل حضارة من الحضارات المعروفة اعني به : « القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق ، ولا يغني التلخيص عن الترجمة . فنحن بازاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية . وكما أن عصر النهضة الذي تلا القرون الوسطى في أوربا قام على حركة ترجمة المؤلفات الاغريقية . وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة في عصورها الزاهرة قامت على حركة ترجمة المؤلفات الهندية والفارسية والاعريقية كذلك نهضة الثقافة العربية الشرقية الحديثة يجب أن تقوم على ترجمة امهات المؤلفات الأوربية المعتمدة في الفروع المختلفة . وهذه المؤلفات من السهل معرفتها . فإما من أمة متحضرة وما من لغة حية إلا أتحدت في كتب خالدة معينة بالذات لا بد أن تعرف في لغتها وفي كل لغة حية . ففي فرع الأدب مثلاً لا نجد اليوم لغة حية ولا أمة

متحضرة لم تنقل إلى لغتها كل أعمال «هوميروس» و
«سوفوكل» و «شكسبير» و «مولير» و «جوته» الخ
وفي الفلسفة والعلوم والفنون أسماء كهذه يضيق بي
المقام عن تعدادها هنا . وهي على كل حال معروفة
لكل مثقف . ولكن المهم هو اجماع الرأي في الشرق
العربي الحديث على القيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة ...
ولنتفق في هذا السبيل الأموال فان ربحنا سيكون
عظيما وسنشتري بهذا حياة لغتنا العربية وسنضع بهذا
كل أساس نهضتنا الفكرية التي قد يسجلها التاريخ
كنهضة للفكر الشرقي لا تقل في أهميتها عن نهضة
الفكر الغربي التي ختمت القرون الوسطى .

أثر أوروبا في أدبنا الحديث

سألتني كذلك مجلة شرقية أدبية عن مدى تأثير الأدب الأوروبي في أدبنا العربي الحديث فقلت :
إن الحضارة لا تبلغ أوجها حتى تبسط جناحيها على العالم المحيط بها فتؤثر في مجرى الأفكار في كل شعب وقارة ، وتغير من طابع الأساليب المختلفة وتطبعها بروحها الخاص الذي جاءت به ، كذلك كانت الحضارة الفرعونية والأغريقية والرومانية والمسيحية والإسلامية الخ

واليوم الحضارة القائمة هي الحضارة الأوروبية ، ولعل الحضارة الأوروبية أشد الحضارات نفوذاً في الشعوب على اختلاف ألوانها . ولعل هذا يرجع إلى تسخيرها العلم والطبيعة في تيسير سبل المواصلات بما

لم يعهده العالم من قبل فالسفن البخارية السريعة
والقطارات والطائرات والراديو والسينما كلها وسائل
عجيبة فعالة في سرعة إذاعة الأفكار الأوربية ونشرها .
إن الكرة الأرضية اليوم ليست إلا برتقالة في مقلب
هذا النسر الأوربي . ولا مناص لأمة من الأمم أن
تجهل أو تتجاهل هذه الحضارة رضيت أو كرهت .

لذلك كان من الطبيعي للشرق ولا سيما أمم
البحر الأبيض أن تتأثر إلى حد كبير بالحضارة التي
تهيمن اليوم لا على البحر الأبيض وحده بل على كل
بحار الأرض . فالقول بأن الأدب العربي الحديث تأثر
بالفكر الأوربي هو البديهة بعينها . وينبغي لهذا الأدب
أن يتأثر بالحضارة الموجودة الحية إذا أراد أن يحيا
وأن ينتشر وأن يفهم ويعترف به في الأرض عامة وفي
بلاد هذه الحضارة خاصة ، والأدب العربي في كل عصوره

القديمة تأثر بالفعل بالحضارات المختلفة . وجرى في
 شرايينه الدم الفارسي والهندي والرومي .
 والقول بأن الأدب العربي الحديث كان أشد تأثرا
 بأوروبا بعد الحرب هو أيضا قول يطابق طبيعة الأشياء .
 فالاتصال الوثيق بين الشعوب واحتكاك الأفكار
 والمبادئ وتقدم المواصلات ، كل هذا حدث بعد الحرب
 وتأثير الحرب على نحو فجائي قوى يشبه الطفرة . ولقد
 أدرك الأدب العربي من احتكاكه بأوروبا أن وسائل
 التعبير في الأدب قد تطورت وأن الكتاب على
 اختلاف جنسياتهم قد تواضعوا على أن يلبسوا أفكارهم
 ثيابا متشابهة في أغلب الممالك المتحضرة كما ألبسوا
 أبدانهم ثيابا متشابهة هي القبعة والسترة سواء في ذلك
 الانجليزى والفرنسى والروسى والأيطالى . . الخ فكان
 من الطبيعي أيضا للأدب العربي الحديث أن يتأثر بهذا

اللباس الادبي الشائع كما تأثر الزي الشرقى إلى حد كبير بالزي الغربى . على أن الزي أو اللباس شىء والروح أو الشخصية التى فى جوف هذا الزي واللباس شىء آخر . ومهما يكن اتحاد الانجليزى والايطالى والاسبانى والروسى فى شكل الزي فان الدم الذى يجرى فى شرايين كل منهم مختلف كل الاختلاف .

لذلك أحب أن أقول لأدباء العربية الحديثة . لا تخشوا مطلقا من اللباس أفكاركم الاثواب الاوربية على شرط أن يكون طابع هذه الافكار وروحها شرقيا محضا . وأن يحس القارىء الاوروبى ازاء أعمالكم أنه أمام نفس غير نفسه وشخصية غير شخصيته وان كان الرداء ليس غريبا عليه لان الرداء ليس ملكا لاحد : انه ملك الحضارة . والحضارة وليدة الحضارات التى سبقتها . . .

الأدب العربي

في الماضي والحاضر

اعتاد الباحثون في الأدب العربي أن ينظروا دائماً إلى الماضي وأن يقصروا عليه كل جهودهم وأن يخصصوه بكل التفاتهم ، زاعمين أنه لا أسلوب في العربية إطلاقاً إلا أسلوب الجاحظ ولا نثر عذب إلا عند ابن المقفع . حتى أدى هذا الزعم إلى حبس النشاط الذهني على آثار الماضي وإلى الاعتقاد بأن مجد الأدب العربي الذي لن يعود انما كان في الماضي .

أثرت هذه العقائد في تفكير الشرق العربي . وكانت هي علة الجمود العقلي الذي أصيب به الشرق على مدى أحقاب . حتى شعر الناس كأن باب الاجتهاد قد أغلق فما عادوا يسمحون لمداركهم أن تتذوق غير الأدب

القديم وإن لم يفهموا صراميه ويشعروا بملايسات حياته ،
 وما عادوا يسمحون لأدباء جيلهم أن يخرجوا عن دائرة
 تقليد هذا القديم وإن أحسوا من أنفسهم القدرة على
 ابداع ما يناسب روح العصر الذى يعيشون ثم فيه .
 غير أن التحرر الفكرى الذى انطلقت نسماته
 أخيرا على ربوع الشرق قد عدل كثيرا من هذه النظرات
 فنحن اليوم لا نخشى أن نبدا تحت وحي الحاضر انتاجا
 يختلف عما أبداع تحت وحي الماضى . ولا يخشى الناس
 أن يتذوقوا ويعجبوا بنتاج الحاضر كما يفعلون بنتاج الماضى .
 ولا نخشى أن نضع الماضى والحاضر فى ميزان المقارنة
 وميدان البحث . نعم نحن اليوم قد تعاملنا أن نعتبر
 الأدب العربى شجرة واحدة نامية نستطيع أن ننقل
 عيوننا بين جذعها وفرعها وأغصانها وأمسها ويومها
 وغدها . . بل اننا لا نتخرج اليوم عن الاعتقاد بأن

مستقبل هذا الأدب قد يكون أئنيق وأزهر من ماضيه
على أن الجرأة في الحكم ما زالت تعوزنا .

أذكر يوماً جاءني أستاذ من أساتذة الأزهر
فتحدثنا قليلاً في الأدب العربي فقلت له أن أساليبنا
اليوم في الكتابة خير من أساليب كتاب العرب الأقدمين
من بعض الوجوه . فنظر إلى دهشاً كأنه لا يصدق
أذنه . فأدركت أن قداسة القديم ما زالت تنسج على
هذا العقل الجامد خيوط العنكبوت .

ولبتت وحدي أفكر في الأمر وأسائل نفسي :
ما وجه العجب في هذا التفضيل . إني من المعجبين بفن
الكثير من الأقدمين أمثال الجاحظ وابن المقفع ولكني
مع ذلك لا أستطيع أن أقضي بغير هذا الحكم . على
أن من التعسف أن تقوم المقارنة على هذا النحو . فنحن
الآن في عصر مختلف كل الاختلاف عن العصور

السابقة . حقاً أن ادراكنا اليوم للفن أوسع ولا ريب من ادراك الجاحظ وابن المقفع . كما أن ادراك اينشتين للعلم أوسع من ادراك فيثاغورس . هذا لا يمكن أن يقوم فيه جدال . إنما الأمر الذي يصح أن نجادل فيه هو : أى الآداب وأى الكتاب استطاع أن يملاً عصره وأن يعبر عن روح عصره وأن يؤثر في عصره . انهم يقارنون أحياناً بين « فولتير » وبين « برناردشو » . فى رأى أن الأخير قد اكتملت لديه من الوسائل الفنية ما لم يتهيأ مثله للأول . إن فولتير لم يبلغ قط فى قصصه التمثيلية ما بلغه قصص برناردشو . ولكن أيهما استطاع بكتاباته أن يهز عصره هزاً . وأن يحدث فى تفكير عصره تيارات قوية ، وأن يفرض وجوده على العروش والسياسات ، وأن يلقى بذور الانقلابات المقبلة فى نفوس الشعوب ؟ ثم سؤال آخر يجوز فيه الجدل : أى الأديين ، العربى القديم أو الحديث استطاع فى جماته أن يقف إلى جانب الآداب

الأخرى المعاصرة ليؤدى معها رسالته إلى البشرية ؟
ان المقارنة بين أدب الأمس في ذاته وأدب اليوم في ذاته تؤدى
غالبا إلى ترجيح أدب اليوم . إنما المقارنة يجب أن تكون
بين أدب الأمس في عصره وأدب اليوم في عصره .
وهنا تختلف النتيجة بعض الاختلاف .

لا أحب مع ذلك أن أصدر أحكاما سريعة . فان الحكم
يقتضى أسبابا مطولة . وإن المقام ليضيق دون ذلك .
إنما أحب في ختام كلمتي أن الفت نظر هذا الجيل إلى ان
يأخذوا الأدب العربى الحديث على سبيل الجد وان يضعوه
موضع الدرس إلى جانب الأدب القديم سواء بسواء .
وان يكثر من المقارنة بينهما إذا شاءوا كما يقـارن
الانسان بين الزهرة والزهرة فى شجرة واحدة . وبين
الثمرة والثمرة فى أعوام متعاقبة . فان فى ذلك تذكيرا لهم
بأن الأدب العربى كائن حى يتطور ويتغير ، ويتلون
ويتأثر باختلاف الفصول والعصور ! !

من النيل الى السين - ١

قرأت رسالتك إلى علي وجه «الأهرام» ذلك
الوسيط الصادق بيني وبينك ، والرسول الأمين بيننا
وبين الناس ، نحمله ما شئنا وما شاءت افئدتنا من آمال
واحلام ، بل هو ذلك الحمام الزاجل لهذا العصر نطلقه
بين ضفتي نهرين ونافذتي قارتين .

إني اكتب إليك الآن هذا الرد وانا اطل على
النيل ، وقد اتخذ لون الفضة في هذا الشتاء ، واتخيلك
الآن واقفاً تنظر إلى السين في لونه الفيروزي الصافي ،
ماشيا الهوينا تتصفح بين آن وأن الكتب القديمة
المعروضة فوق حاجز النهر كما كان يفعل صديقك
اناتول فرانس .

نعم انك تثير في نفسي ذكريات . رسالتك قد

اعادتنى إلى ذلك الماضى . . يوم كنت اقطع كل صباح
ذلك الطريق بين كاتدرائية نوتردام حتى جسر «دورسيه»
في الضفة الشرقية ، لا اترك كتابا حتى اتصفحه ، كان
نصف تحصيلي العلم في أول أمرى من تصفح الكتب
خلسة بغير مقابل ، التقط من كل كتاب فكرة أو
فكرتين كالعصفور يلتقط من كل سنبله حبة أو حبتين
واتحاشى أن ترانى عين البائع المسكين وهو أيضا فنان
في أغلب الأحيان يهيمه اقتناء النادر من المجلدات ويزهو
بعرضها أكثر مما يهيمه أمر بيعها ، ولقد اضحكتنى
ذات مرة عبارة بارعة في كتاب مشهور كنت اتصفحه
فباغتتنى نظرة البائع فخرجت أن أطرح الكتاب بعد
ذلك فاضطرت إلى شرائه بالمال الذى ادخرته لغدائى .
نعم لقد كنا هناك نجمع أعقاب العلم من كل مكان
كما يجمع فى مصر الغلمان اعقاب السجائر ، إلى أن

اتسعت اذهاننا بالمران فصرنا نلتهم الأسفار التهاما .
إن باريس عندنا لم تكن قط امرأة ، إنما كانت
كتابا مفتوحا هو « سفر الحياة العليا » .

أما هنا . . . فالنيل جميل حقا لست أنكر
ذلك وإنى لا أرى الآن طرف « الجزيرة » الممتد في الماء
كأنه مقدم سفينة ، وأبصر فيها النخيل والأشجار
خضراء داكنة كأنها ليل شعري يخفى تحت ستره
المحبين ، ولكنى لا أرى على ضفتى هذا النهر الرحب
العظيم غير قصور صغيرة متناثرة بيضاء وصفراء
وخضراء كأنها بعض طيور الماء ، جمال طبيعي لا ريب
فيه ، ولكنك لا ترى فيه بعد يد الحضارة النشطة ، فلا
حواجز ممتدة ولا تماثيل منصوبة ، ولا كتب معروضة .
أعترف لك انى لا اقرأ فى مصر كثيراً ، وهل فى
مصر بعد شيء يدفع إلى القراءة ؟ ان مصر ليست كتابا

مفتوحاً، إنما هي هيكل قديم مغلق يحوى كنوزاً، قد ضاع مفتاحه فعلينا قبل كل شيء أن نفتح بابه ونستخرج ما فيه، ليس من الخير أن نظل طول الزمن نتغنى بمفاخر هذا الهيكل ونحن نائمون على اعتابه، ولكن المصاحبة كلها في أن نذكر أنفسنا دائماً بما فينا من كسل ونقص وخمول وأن نهب على أقدامنا للعمل. وعلى ذكر العمل أريد أن أسألك سؤالاً :

أما زال المقيم في باريس يحس هذا الجو المعنوي المشبع بالنشاط الذي يغري بالعمل المتواصل دون كلال؟ لعل أهل مصر لا يعرفون هذا الجو وإنك لتستطيع أن تخدم بلادك لو وصفته لنا فيما تصف، هذا الجو الذي ينتشر في كل مكان، في القهوة حيث ترى الجالسين اما يكتبون واما يقرأون واما يتحدثون حديثاً خافئاً سريعاً كله عزم ثم يتناولون قهوتهم السوداء في

جرعة أو جرعتين ويخرجون قافزين إلى الأوتويس أو
هابطين إلى المترو السفلى لينصرفوا إلى العمل فلا جلوس
مستديم في غير طائل كما نفعل في مقاهينا نحملق
بأبصارنا في الرأخين والغادين ولا قهقهة عالية نصخب
بها ونحن ننفخ دخان الشيشة ولا مناقشات
مدوية في العلاوة والترقية ، ولا صيحات العريضة ، ولا
ضوضاء الرد .

نعم . أو ليست تلك كل حياة الملايين من المصريين
في أوقات فراغهم بعد عمل قليل لكسب اللقمة ؟ فهي
بالقياس إلى ما تراه الآن حولك في باريس لا يمكن أن
تسمى حياة . فالحياة هي العمل واللهو ، ونحن لا نعرف
حتى كيف نلهو لأننا لا نعرف كيف نعمل ، ولعل
مصيبة العاملين في مصر وهم ندرة أنهم لا يعرفون أين
ولا كيف يلهون بعد نهار شاق ممتليء بالانتاج ، فلا

أوبريت فنية مصرية ، ولا مسارح تلتقي فيها شمس الحياة الاجتماعية ، ولا صالونات لنساء عظيمات تتقابل فيها أساطين البلاد . ولا أندية ليلية راقية يعرض فيها ظرفاء الأدب والشعر والفن كلماتهم اللامعة ونكاتهم الباردة واخبارهم ونواديرهم وأغانيتهم . لا شيء في ليالينا المصرية يمكن أن ينم عن الروح المصرية والذوق المصري ، بينما كل شيء في الليالي الباريسية يدل على الروح الباريسية والذوق الباريسية .

ان الحياة بمعناها الرحب العظيم لم تدب بعد في وادي النيل ، انما تلك الحياة الصغرى التي لا تخرج عن شؤون الأكل والشرب والمتعة الوضيعة هي وحدها المعروفة الآن .

وبعد فاني أرجو لك إقامة طيبة في محيط تلك الحياة الحقيقية التي أنت فيها الساعة ، وأرجو منك أن

تحرص على كل دقيقة من دقائقها وأن تروى ظمأك
 بحسنها العلوى وتشبع نفسك بجمالها الروحى .
 وهنيئاً لك .

من رسالة الى احمد الصاوى محمد فى عام ١٩٢٧ .

جاء في آخر رسالتك الماضية ذكر للأكل
والشرب . وقلت بحق أننا حتى في هذا أيضا لم نبلغ
شأوالأمم المتمدينة صدقت والله صدقت . إن الحضارة
هي الحضارة . كل شيء فيها موضوع تفنن وابتكار .
إن الرجل المتحضر هو الذي يعرف كيف يعمل وكيف
يلهو وكيف يأكل . ومامن أدب من الآداب العريقة إلا
وفيه فصل عن الطعام . فإذا فتحت «العقد الفريد» لابن
عبد ربه أو «مقامات بديع الزمان» لوجدت أوصافا
تسيل اللعاب في ألوان «السكباجة» و «الطهباجة» .
وإذا راجعت كتاب «بول ريبو» الأديب الفرنسي عن
فن الأكل لوجدت فيه هذه العبارة الطريفة : « إن
استكشاف لون جديد من ألوان الطعام لا نفع للإنسانية

من استكشاف نجم جديد من نجوم السماء . وإنك
لتعلم فيما تعلم عنى انى أحب الجسد من
الطعام . وإنى كثير التبديل والتغيير للطهارة . فبحق
عندك الا أكلت لى وباسمى ثلاثة أزواج من « المحار
البرتغالى الأخضر » وطبقا من « الكاسوليه » التولوزية
التي أحبها ؟ ولا أوصيك بحساء البصل فأنت أدرى منى
أين تجده وتطلبه . وبعد ! أما وقد فرغنا من أمر بطوننا
فلنتجه إلى شئون عقولنا . لقد راقى حقاً وصفك
للأضراب العام فى باريس وقولك إن تعطيل طرق
المواصلات من ترام ومترو وأوتوبيس فى بلد كباريس
لم يعطل لحظة نشاط الباريسيين . هذا صحيح . إن
ضرب باريس نفسها بمدافع الألمان أيام الحرب لم يؤثر
لحظة فى حياتها العقلية والذهنية والاجتماعية . فقد كان
رجال العلم فى معامهم وقاعات بحثهم همهم ، ينظرون

إلى عالم اللاهثائي من خلال المكركسكوب والتاسكوب
 ورجال الأدب هم هم يستقبلون تحت قباب المجمع
 الأدبية زملاءهم بذلك النثر الذي سيبقى على التاريخ .
 ورجال الفن هم هم يعرضون نتائج ابتكارهم واتجاهات
 مذاهبهم في المعارض والصالونات ، والمسارح هي هي تعج
 بالمشاهدين والناقدين . . وأندية الليل هي هي بظرفها
 وشعرها وخفة روحها . .

أما في مصر . فكل هذا غير معروف . فانه ليكنفي
 أن تنشر جريدة في صفحتها الأولى أو التاسعة خبراً
 سياسياً هاماً حتى تجد مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها
 لا تتكلم إلا في هذا الخبر ، ولا تعيش إلا بترديد هذا
 الخبر . السبب في ذلك بسيط : إن حياتنا فوضى . أو
 هي حياة أولية «سديمية» لم تتكون فيها عوالم منظمة
 متألفة يعيش فيها الناس . فانك لا تستطيع مثلاً أن

تقول في مصر « عالم الأدب » و « عالم العلم » و « عالم
الرياضة » و « عالم الفن » و « عالم السياسة » الخ الخ ...
بالمعنى المفهوم لهذه العوالم في أوروبا . فإن كل طائفة من
هذه الطوائف عندنا لم تستطع حتى الآن أن تنظم
نفسها تنظيماً يؤهلها لحصر جهودها المنتجة في منطقة
معينة بالذات . وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التي في
يدها القوة واللقمة وهم رجال السياسة ، قد برز عالمهم
كالشمس فطغى على الآخرين ، ومحي من الوجود تلك
العوالم الأخرى النافعة التي كان ينبغي أن لا تقل عنها
إشراقاً . فنحن إذن لا نعيش كما تعيش الأمم الكبرى .
ومجتمعنا على وضعه الحاضر مجتمع ابتدائي . فإلى أن يهتم
الناس بأشياء أخرى غير السياسة وأرقى من السياسة .
وكل شيء في الوجود هو في الحقيقة أرقى من السياسة .
إلى أن يعني الناس بشؤون الفكر ولذات الفكر ،

وينفقون في الكتب والمتاحف والمعارض وقاعات المحاضرات
بعض اللحظات . إلى ان يكون لرجل العلم ورجل الادب
ورجل الفن في مجتمعاتنا عين الاحترام والاهتمام الذي
يقابل به رجل السياسة . إلى ان تكون للمظاهرات
الأديبية والعلمية عين الهزة والضجة التي تكون للمظاهرات
السياسية ، إلى ان نترك هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين
المحترفين يصيحبون ويصخبون في نواديهم ! . وننصرف
نحن المفكرين الى نوادينا ومجامعنا الفكرية ! ونحن الرياضيين
إلى نوادينا الرياضية . ونحن المسالين والاقتصاديين إلى
نوادينا المالية والتجارية . إلى ان تتعدد نواحي النشاط في
البلد . ويذهب هذا النوم والجنون الذي شمل كل جانب
إلا ذلك الجانب العقيم : السياسة . إلى ان يحدث كل
هذا فلا أمل في المجتمع المصري . فلندع الله ان يتدارك
هذه الأمة برحمته فهو مغير الأحوال والسلام !!

من رسالة إلى احمد الصاوي محمد عام ١٩٣٧

في السياسة والاجتماع

في اتيكاليه تسليمه

ASIAN UNIVERSITY LIBRARY

UNIVERSITY OF TORONTO

هستريا السياسة

أسمع هذه الضوضاء التي ارتفع صداها إلى أبراجنا
العاجية فأفسدت علينا هدوءنا وتفكيرنا . لعلك قائل
معى : هى «هستريا السياسة» أصيب بها هذا البلد دفعة
واحدة . نعم . الأمر لا شك خطير ما دام قد استطاع
أن يصل خبره إلينا فيؤثر فى أعصابنا وانتاجنا نحن
المعتصمين فى أبراج الفكر الهادى . وإذا وصل بخار
«السياسة» إلى تلك القمم الباردة فى أمة من الأمم
فاندر إذن بالويل وتنبأ بأن رأس الأمة قد لعب به
الداء . . . فما رأس الأمة فى حقيقة الأمر إلا مفكروها
المجردون . وإنك لتذكر ما كان من أمر «جوته» شاعر
الامان يوم زلزلت الدنيا بثورة يوليو الفرنسية ! فقد
دخل عليه صديقه الأديب «اكرمان» يزوره ويتحدث

إليه . فبادره جوته صائحاً . « لقد أرسل البركان حممه واشتعلت النار في كل شيء » فقال اكرمان . « نعم انه لحدث جليل هذه الثورة الفرنسية » فعجب جوته وقال ساخرا . « كلا . لست أعنى تلك الثورة انما اتكلم عن تلك المساجلة العالمية التي نشبت في موضوع « أصل الأنواع » بين العالمين « كوفييه » و « جفرى سانت هيلير » تحت قبة المجمع العلمى » .

هنا أيها الصديق كل مجد المانيا في الماضي بل كل مجد البشرية العليا . إن رعد الثورة وصياح الثوار لم يبلغ صدهاء أبراج العلم وقم الفكر . هذا الرأس قد ظل ثابتاً . لم تلعب به « السياسة » ، هادئاً لا يتأثر بانقلاب أو فتح أو حرب إلا ما وقع في ميدان العلم والفكر . ولقد انطفأ فم لاهب الثورة الفرنسية ومضى بدخانه ورماد أشلائه وبقي رأس « جوته » شاخاً مضيئاً

في عليائه ، رمزا للفكر الأنساني الخالد .

ينبغي أن نتدبر قليلا هذا البلاء ، خوفا على رؤوسنا أن يصيبها دوار « السياسة » فلا تبصر شيئا في هذا الضباب الشامل ، وخشية على الناس أن يتمكن منهم الداء ، فيذهب بألبابهم ويدفعهم إلى التقاتل والتناحر ويفرى الشبان منهم باقتراف الاثم وارتكاب الجريمة ، ويشغل المنتجين منهم عن الانتاج ويصرف الأمة قاطبة عن العمل المفيد ويوقف تلك النهضة التي كادت تعود إلى هجعة مضطربة تحت أقدام كلبوس .

إننا لا نستطيع أن نصيح في الناس وإذا صحنا من هذا العلو فما صيحاتنا إلا همسات تمر فوق بحر من العراك والصياح والهمساف تعج به وتصخب أمة بأسرها . هل لك في أن تنادى معي من برجك . أيها الناس اتركوا السياسة للسياسة ، فانهم ليسوا في حاجة إلى حناجركم ولكنهم في حاجة إلى هدوئكم وانصرفكم إلى أعمالكم !

من مساجلات مع منصور فهمي عام ١٩٣٧

جموح الديموقراطية

ما تقول هو الواقع . إن تفشى المادية وجموح
الديموقراطية لمن أظهر الأمراض الاجتماعية اليوم .
ولعل الأولى نتيجة الثانية . فقد فهمت الديموقراطية فيها
غريبا . فهي اليوم مطية ذلول لمن يريد سرعة الوصول .
ولقد تراحم الناس فعلا على ركوبها فجمحت بهم وانطلقت
تهدم الاخلاق وتحطم المثل العليا . إنك لن تجد اليوم
كثيرا من طراز اولئك الرجال الذين عاشوا متعففين
لا مطمع لهم غير تلبية نداء الحق والواجب في صوت
جهير وخلوص ضمير . لقد مضى ذلك الزمن الذي كان
يجلس فيه العالم قابعا في أطماره يلتقى الحكمة على سامعيه
ويجري عليه الخبز ليعيش ، ثم يموت ولم تعرف يده ثقل
الجنيهات . فقد كفها أن عرفت ثقل القبلات يضعها

عليها رجال الحكم والسلاطان . مضى ذلك الزمن الذي
 كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب
 من واجبه الانساني ، والقاضي من عدله المنزه ورجل
 الفقه من فتاواه المجردة ، والاستاذ من بين تلاميذه
 ودرسه ، ورجل الدين من بين تابعيه وزهده . الآن
 نستطيع بترقية أو بعلاوة لا تعدو جنهات أن نلعب
 بلب أكثر هؤلاء وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم
 الطبيعي وأن نغريهم بمناصب لا صلة لها بعملهم ولا
 بفضلهم . وهذا ما يحدث كل يوم . فقد ماتت المثل العليا .
 وهذا ما أقفر دور العلم والفكر ودور الدين والزهد ودور
 العدل والفقه ودور الفن والأدب من أربابها وزج بهم
 إلى التطاحن والتسابق في ميادين المادة والوصول . هنا
 أيها الصديق كل الخطر . فان تفشى المادية والوصولية في
 جسم الأمة لا يخيفني بقدر ما يخيفني دنو الداء من رأس

الأمة أى خاصتها وقادة الرأى فيها، إن هذا الرأس هو المحتاج الآن إلى العلاج . ولكن كيف . ما هى تلك العملية الجراحية التى تخرج من هذا الرأس صديد المادية وتطهره بماء القناعة والروحانية . كيف نستطيع أن نذكر الناس اليوم أن أقوى امبراطورية على الأرض وقفت ذات يوم وخلفها أساطيل البحر والجو مكتوفة اليدين حائرة أمام رجل هندي خلفه عنزة . ثقب أن فى الامكان صنع الاعاجيب لو استطعنا أن نعيد إلى الخواصة حسن ظنهم (بالأخلاق) وصدق تقديرهم (للمثل العليا) . ينبغى أن يؤمن الناس بأن لا أحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذى لا يشتري بمال ولا يجاه . نعم إن من ملك قلبا حارا ولسانا حرا ولم يكن له فى زينة الحياة مطعم فهو وحده الذى يستطيع أن يسود العالم . ألا ترى معنى أن (المثل العليا) المحطمة فى حاجة إلى أن توضع من جديد شامخة فوق عروشها الرخامية الجميلة !!

الأيمان بالمثل العليا

تسألني عن أقرب الأسباب لاعادة حسن الظن
بالأخلاق ، وتقوية الايمان بالمثل العليا . هنا كل المسألة .
ولست أدري من يبدأ بالعمل ومن يعطى المثل . أهم
الأفراد أم هم أصحاب السلطان ؟ ولقد ذكرت عمر بن
الخطاب وزهده في متع الدنيا وفي يده مفاتيح الكنوز
وتحت قدميه دول وعروش . هذا حقيقة خير مثل
لصاحب السلطان ينبغي أن يضرب للأفراد والمحكومين
كي يقتدوا به ويؤمنوا بأن العظمة الحقيقية لا تعرف
الحرص على المادة . ولكن الدرس والمثل قد يأتي أيضا
من الفرد المحكوم وما أخالك تنسى موقف ذلك العالم
الفاضل الشيخ الطويل يوم دعاه الخديو فأبى إلا أن يذهب
إليه بعباءة البالية الممزقة التي عليه فلما ألح عليه الناصحون

أن يرتدى عباءة جديدة صاح فيهم : أهو يريد رؤيتي أنا
 أم رؤية العبادة ، ان أراد العبادة فها هي ذى أحملوها إليه
 وان أرادني أنا فاني أذهب إليه كما أنا . وما أخالك تنسى
 كذلك موقف علماء الأ زهر يوم دعاهم نابليون الظافر
 وأراد أن يزين صدورهم بالنياشين ، فراحه أن رأى أيديهم
 الغاضبة قد انتزعت نياشينه وألقت بها إلى الأرض في
 حضرة . فلم يغضب وابتسم وعلم انه امام رجال يحترمون
 انفسهم . وهو أول من يدرك أن الانتصارات والجيوش
 لا قوة لها ولا حيلة امام رجل يحترم نفسه . فأنت
 ترى معي ان الدرس الخلقى قد يأتي من صاحب
 السلطان كما يأتي من الفرد المحكوم ... المهم في الأمر ان
 يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة النزيهة العظيمة في أى
 طبقة واى بيئة واى زمان . واعدود فأجيب على سؤالك
 الآن في غير تردد . ان اقرب السبيل إلى اعادة حسن

الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل .
هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حتى نراه بأعيننا
ونسلم صوته بأذاننا ونلمسه بأيدينا ونتبعه بأفئدتنا .
ولكن هل كل مجتمع قدير على اخراج مثل
هؤلاء الرجال او ان اولئك لا يظهرون إلا في مجتمع
يهيئهم للظهور ؟

من مساجلات مع منصور فهمي عام ١٩٣٧

داء الكلام

هناك أمر آخر يدعو إلى قلق على مستقبل نهضتنا . ان أول شيء يحزنني حقيقة وأرجو أن يكون قد استرعى نظرك على الأقل هو ان «الكلام» له عندنا دائماً كل القيمة ، اما (العمل) فلا يسأل احد عنه . إن (الشكل) هو الذي يعيننا ويخلب منا اللب . أما (الجوهر) فلا نكاد نلتفت إليه . إن (الوسيلة) تنقلب عندنا دائماً إلى (غاية) . لعلك قرأت في كتابي (يوميات نائب في الأرياف) كيف يهتم رجال الضبط أحيانا بتنميق تحرير المحاضر وملء القسائم أكثر من اهتمامهم بالقبض الفعلي على الجناة . ولعلك رأيت في محيط حياتنا العام كيف ان عشرين عاماً قد مضت على مصر ونحن لا عمل لنا إلا الصياح بملء أفواهنا هاتفين بكلمات الحرية والاستقلال

ولقد نبذنا كل شيء ، وتركنا كل عمل من أعمال النهضة الحقيقية وجلسنا نتقاذف أقوالا ونردد كلمات . الى أن شاء القدر آخر الأمر أن ينقذنا من هذا التكاسل والقيود فقال (هاكم الاستقلال) فقلنا (هات) ثم أخذنا هذه الكلمة وجلسنا كما كنا لا ندرى ماذا نصنع بها . نحن نقع دائما في الحيرة كلما تركت الظروف وجهها لوجه امام العمل المنتج ، وكأنا لا نجد فرجا ولا مخرجا إلا في الصياح والجدل . إني لأخشى أن تظهر في الأفق كلمات أخرى أو أن نختار موضوعا جديدا للتصايح يشغلنا من جديد عن المضي الجدي في حركة النهوض المنشود . آه . العلة كلها ها هنا : إن روح العمل وعبقريته الخلق ثمار لم تلق بعد بذورها في أرض مصر ! حاجتنا شديدة إلى هذا الصنف من رجال العمل الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شيء في الوجود . إنك ولا ريب تذكر

نابليون في غزوته لروسيا ، وكيف خذله البرد والجليد ،
غير اني أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا الرجل
عندما وجد نفسه محصورا في تلك الأصقاع لا يدرى
ماذا يفعل . استغفر الله . إن الرجل العظيم يعرف دائما
ماذا يصنع ولا يطيق مطلقا أن يقعد دون أن يخلق
شيئا . فهو لم ينفق وقته في صياح ولم ينتظر الغد
مستلقيا على ظهره ، ولكنه شمر في الحال عن ساعديه
للعمل وجعل وهو في كربه وضيقه يفكر في إصلاح
بلاده ، ويضع بالفعل وهو بعيد عنها ، الأسس اللازمة
لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها . وكان من بين
تلك المنشآت مشروع الكوميدي فرانسيز إحدى منائر
الثقافة الفرنسية في العالم . وكذلك فعل هذا الرجل في
مصر يوم حطم خصومه أسطوله وقطعوا صلته بوطنه ،
فلم يضعف عزمه ولم تفتر روح العمل فيه وقال (لم لا

أصنع في مصر حضارة أخرى ؟) وشرع من فوره يبنى
دعائم المعاهد العامية ويضع أحجار النظام والاستقرار
لطرائق الحكم واسباب العمران . ولكن : من المسؤول
عن موت روح العمل المنتج في هذه الأمة ؟ أم رؤوسها
الذين عودوها سياسة الكلام ؟ أم هي الأمة نفسها التي
لا تحب ولا تحمل بعد غير هذا الصنف من الطعام !!

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

البرنامج الأول

ما دمنا قد اتفقنا على أن «العمل» قد حان له أن
يحل محل «الكلام» وما دمت يا صديق قد طلبت إلى
أن أمضى في ذكر التفاصيل . فاني اقول لك أن أول ما
ينبغي عمله هو وضع «البرنامج» . وقد ترد على بأن
«البرنامج» هي أيضا مما يدخل في منطقة «الكلام» .
ولكن ما الحيلة إذا كانت حتى هذه الخطوة الأولى في
سبيل العمل لم نخطها بعد . إن كل النهضات التي قامت
بها الحكومات الحديثة في بلادها خصوصا بعد الحرب
قد تمت وفق منهج مرسوم وتحدد لتنفيذها زمن
معلوم . فقالوا : هذا «نظام خمسي» وهذا «نظام عشري»
تبعاً لعدد السنوات التي قرر الاختصاصيون أنها لازمة
لظهور المشاريع . فأين نحن من هذا ؟ نستطيع مثلاً أن

تقول لي هل وضع نظام ثابت لمحو الأمية من البلاد في ظرف سنوات معلومة كما فعلت العراق ، حتى نرتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية او اقتصادية او سياسية نواجه بها هذه النهضة القادمة ؟ أيمكنك أن تقول لي هل هنالك مشروعات اقتصادية درسها الخبراء وقرروا لها زمنا تتم فيه وتخرج للبلاد في نهايته وسيلة جديدة من وسائل الانتاج تزيد الثروة الأهلية الزيادة التي تتعادل مع نمو عدد السكان وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلية ؟ أو اننا سنظل دائما كما نحن وكما كنا منذ أن أدخل الخديو اسماعيل في مصر زراعتي القطن والسكر لا نفكر في مصدر جديد للثروة ينفعنا في الغد ؟؟ وهل في مقدورك أن تقول لي هل درس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعي وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة في نهضتنا وإلى أي مدى ننحو نحو الحضارات القائمة أو

اننا سنبقى حيارى فى حدائق المعرفة لا ندرى ماذا نأخذ
وماذا ندع ! فأنت ترى انه لم يوضع شىء بعد —
حتى على الورق — لتحديد العمل والزمن الذى يقتضيه
التنفيذ لمختلف فروع نهضتنا بل أنه لم ينظر إلى الآن
حتى فيما يجب البدء به حالا من هذه المرافق المختلفة
تبعاً لحاجة البلاد حتى لا يضيع علينا الوقت فهل أنت
ما زلت من المتفائلين ؟؟

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

فساد الدولاب

حتى على فرض فراغنا من رسم الخطط ووضع البرامج ، فالباقي بعد ذلك كثير ، بل إن مجرد السير الآن في طريق العمل عسير . إذ بمن نعمل ؟ إن الأيدي العاملة قد لحقها الفساد ، فهي مثل تروس الساعة المختلة تدور في غير حدود ، فيد الوزير أحيانا تمتد إلى الأنظمة والأوضاع تقابلها رأسا على عقب دون أن تصغى إلى كلام أصحاب الاختصاص من المرؤوسين . وإن الموظف مهما يكبر ومهما ينبغ لا يعدو أن يكون تابعا يتلقى أمر رئيسه ويؤمن على رغبته وإن علم أن فيها ضررا لمصلحة البلاد . وهكذا هدرت الشجاعة الأدبية . وجبنت النفوس عن تحمل المسؤولية . بل إنه ليحدث أكثر من ذلك . فإن المسألة الفنية لتعرض أحيانا على لجان من

الاخصائيين يبحثونها في شهور . فيأتي وزير يضرب
 بنتيجة البحث الطويل عرض الحائط . ويؤشر بقلمه
 الأحمر مناقضا ما جاءت به اللجنة ، كأنما هو يتحدى تلك
 العقو ليظهر أن رأيه «المرتجل» لساعته خير وأحكم من
 آراء المختصين بعد درس شهور . ولكن الأدهى والأمر
 انه يجد في أكثر الأحيان من بين موظفي وزارته ومن
 بين هؤلاء الاخصائيين أنفسهم من يقول له « آمين ،
 آمين » فهل يمثل هذا الدولاب الحكومي نستطيع
 أن نسير في تنفيذ خطة أو برنامج ؟ فإلى أن يعلم الوزير
 كيف يحترم رأى موظفيه المختصين . وإلى أن يفهم
 هؤلاء الموظفون كيف يحترمون آراءهم . إلى أن توزع
 الأعباء والمسؤوليات بين الوزير ومعاونيه ، ويحل
 النظام محل الفوضى في علاقة الرئيس بالمرؤوس ، فلن
 تكون الأداة الحكومية صالحة بعد للسير الجدى في

تنفيذ مشروع من المشروعات ، واني أسوق إليك مثلاً صغيراً للأداة الحكومية الصالحة ، ما ذكره يوماً صحفى أمريكى قال انه ذهب لمقابلة وزير خارجية إنجلترا قبيل إعلان الحرب العظمى ليسأله عن موقف إنجلترا من ذلك الحدث الهائل الذى يهدد العالم . فوجد الوزير مطرقاً فى مكتبه وإلى جانبه وكيل وزارته الدائم غارقاً بين تقارير فنية ووثائق تاريخية . فرفع الوزير رأسه وقال للصحفى : « تسألنى عما إذا كنا سندخل الحرب ؟ ! لست أنا الذى يستطيع أن يجيب الآن عن هذا السؤال الخطير ؟ ثم أشار إلى وكيل وزارته وقال « ان وكيل الوزارة يبحث الموضوع من كل جوهه وهو وحده الآن صاحب الكلمة وعليه تقع التبعة ونتيجة أبحاثه هى وحدها التى ستقرر لنا الطريق كسياسيين ، فنقرر إذا كان من واجب بريطانيا العظمى دخول الحرب ؟ !

الحرب بكل الاسلحة

كارثة أخرى من الكوارث التي نكبت بها مصر
هذا الغلو والأغراق في الخصومات . فاذا اختلفنا على
رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شئ وتحطم كل شئ
ان في كل بلد راق حدودا مقدسة تقف عندها الخصومة
وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد . فاقحام الدين
مثلا في ميادين الخلاف السياسي أمر لا يمكن أن يحدث
اليوم في أي شعب ديموقراطي متحضر . فالديموقراطية
ليست كلمة تقال في الخطب لأنها جميلة ذات رنين . ولا
هي بناء شامخ يسمونه البرلمان . لكن الديموقراطية هي
روح المساواة والاخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع .
وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو
طوائف إنما هي طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب
الأمة وصميم الديموقراطية . كذلك ينبغي أن نتذكر

دائماً أن الخصم في المبدأ هو مواطن مصري قبل كل شيء . وان خصومة المبادئ ليس معناها القضاء المبرم على الاشخاص بكل الاسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التي قد ترجى منهم في وقت من الاوقات . فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرج به إلى الأبد من ميدان النفع العام . وانما الغرض الذي يسعى اليه الجميع هو خدمة الوطن وحده . فلتكن الخصومة في حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع . وليعتقد كل في خصمه أن عجزه يوماً عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك في يوم آخر ، فلتكن إذن السهام المصوبة من طرف إلى طرف في غير مقتل من الشخصية والادمية والشرف . فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من ابنائه العاملين انما المصلحة هي في أن تتداول السواعد ادارة العجلة ، وأن تهياً لكل يد الفرصة لخدمة البلاد .

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٨

نعيم الانتخابات

معذرة يا صديقي إذ أقطع اليوم سلسلة مناقشاتنا
الاصلاحية لا تحدث في خاطرة مرت بي ، ولعلها مرت
بك ، فالأفكار الآن لا يشغلها غير أمر واحد :
الانتخابات . يخيّل إليّ أن موسم الانتخاب نعيم لكل
الناس الا للمتقدم إلى الانتخاب . ويل لهذا المتقدم .
إن كل خطوة يخطوها إلى الميدان نفقة وغرامة . فهو
لا يحرك رجله قبل أن يدفع مائة وخمسين جنيها
«رسوم الامتحان» ثم يسير فاتحا جيوبه بالمال وعيونه
بالحرص والحذر وفيه بالكلام والخطب والوعود . أما
نحن معشر النظارة و(المتفرجين) المحايدين فهو لنا تسليّة أمتع
من سباق «الدربي» وإني لأرى الناس حولي مبتسمين
يتحدثون في أخبار هذه «الملهامة» بلذة واهتمام . وأرى

فئة العارفين والحقاق يستعرضون المرشحين ويوازنون بينهم كما يوازن أهل الخبرة بين كرام الجياد وهي تتبخر في المضمار فوق العشب الأخضر قبل بدأ السباق . على أن النعيم الحقيقي فيما أرى هو من نصيب الفلاح المسكين . هذا المخلوق العاري القدمين الذي يجوع أكثر الأسبوع ، ولا يرى وجه القرش إلا مصادفة ، كما نرى نحن وجه الحظ عابرا في طريق الحياة . هذا الذي يسمونه انسانا بحكم النوع ، وهو في الحقيقة لا يسترعى التفات انسان . هذا الأدمي المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود اليه آدميته إلا في أيام الانتخابات . فان «صوته» الضائع مع الريح كأنه صوت كلب ضال ، هو اليوم «صوت» له خطره وله سعره وله طلابه وله من يجري خلفه ويقدره قدره ويدفع فيه نقودا . وهذه المعدة الخاوية التي لم يدخلها غير الفجل والجبن ذى الدود

تنتظرها اليوم الولايم وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون . وتلك الأقدام الحافية التي لم تعرف غير المشي خلف حمير «السباخ» توضع اليوم تحت تصرفها السيارات «والتاكسيات» تنقلها من حفلة إلى حفلة . نعم انها لا تحسب من عمر الفلاح وهو بذكائه يعرف انها لا تدوم فهو يستمتع بها من غير غرور ، ويراقب نزولها بأسف ولا يزيد على أن يقول :

— كانت أيام (استنخاب) ركبنا فيها (كنايل) وأكلنا (زفر) ودخلت جيوبنا (نقديه) .

من يدري لعل فريضة (الزكاة) التي ذهبت مع الزمن قد عادت اليوم في ثوب جديد . نعم ان لم يكن من فضيلة الانتخابات إلا أنها تشتري صوت الفقير بالذهب ، وتسد فيه بالطعام ، وتركبه ما لم يركب وتريه ما لم ير ، وتحيطه بظاهر العناية والاحترام ولو إلى وقت

قصير لكفى بها فضيلة . إن الانتخابات في نظري
ليست حتى الساعة في هذا البلد مظهرا من مظاهر
الديموقراطية . ولكنها أول معلم يفهم الفلاح أولا معنى
الحياة الانسانية ويذيقه طعم الامة .

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٨

«شركة مقاولات» الاستجابات

نعم يا صديقي . لقد خطر لي أن في الامكان انشاء
مثل هذه الشركة تسهيلا للعمل . فان من المرشحين من
قد يكون مثلي ومثلك في براءة الحمل الوديع لا يعرف
كيف ينال من خصومه ولا كيف يمدح نفسه ولا
كيف يضحك على ذقون الناخبين . فما أحسن لثلاثنا
من أن يتوجه إلى مثل هذه الشركة ويتفق معها على
(المقاوله) ويدفع (العربون) ويذهب إلى منزله فينام ملء
عينيه ، وتقوم هي بكل ما يجب من اقامة السراشق
وتأجير الخطباء واعداد الولايم وجمع المعلومات عن فضائح
الخصم ومثالبه الشخصية الخ الخ وما على مثلي ومثلك بعد
ذلك الا أن يذهب إذا شاء خفية علي سبيل حب
الاستطلاع ويجاس في سراشق الاحتفال الذي تقيمه

الشركة فيرى ويسمع اللذيد الطريف . . يرى خطباء
الشركة قد قاموا واعتلوا المنصة واحدا تلو واحد ،
يوسعونه مدحا ويسردون تاريخ حياته الحافل بكل جليل
ومجيد . ويتكلمون في ذمته وطهره وكفايته ونزاهته وهو
لم يرهم ولم يروه مرة قط . ثم يعرجون على خصمه
فيطعنون فيه الطعن المر ويدكرون من خصاله الذميمة
وأعماله الخبيثة وخياناته وسفالاته ما تشمئز منه النفوس .
وما تكاد تختم هذه الحفلات على خير أو شر حتى تقدم
الشركة (فاتورة) الحساب . فاذا استكثرت المبلغ أقسموا
لك أن الشركة قامت بنفقات باهظة وأن خصمك وحده
كلف الشركة (شتائم) بما يساوى مائة جنيه . إلى هنا لا
بأس . لكن إذا خطر لك أن تسير قليلا في البلدة لوجدت
عجبا . فان سرادقا آخر قد نصبته عين الشركة لخصمك هو
أيضا . وقد قام فيه خطباء آخرون من قبل الشركة
يمدحون الخصم ويغسلون عنه ما لحقه في السرادق الأول

وينزلون بك أنت كل تهمة وكل عيب ويلصقون بك
من (الشتائم) ما يساوى مائتين جنيه . فاذا ذهبت غاضبا
إلى الشركة قالوا لك :

— يا حبيبي حضرتك (زبون) وحضرته (زبون) !!
فاذا صحت محتجا ابتسموا لك فى أدب بما معناه
أن : (لا فضل لزبون على زبون الا بالآلآآآ)

هذه الشركة الخيالية غير موجودة من حسن
الحظ على هذا الوضع . ولكن من يدري . لعل الحال
فى جوهره يجرى أحيانا على هذا المنوال فان ما يسمونه
(حفلات) الانتخاب يؤدى غالبا إلى مثل ذلك بدون
أن نقصد . وإن يد (التنظيم) هذه إذا دخلت فى مسائل
الواجب والضمير فانها تتجه غالبا إلى فم الساذجين
فتزحمه بألوان من الطعام يضع معها صوت الواجب
والضمير !!

المرائس

ترى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة
لو حدثتنا النفس الملعونة بالنزول من أبراج فكرنا
العاجية والجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية ماذا كنا
نخطب قائلين للناخبين ؟

أما أنا فاني كنت أقول هكذا :

سادتي الناخبين :

باسم الديمقراطية أتقدم إليكم ملتمساً عطفكم ، إني
أحب الديمقراطية . ومن ذا الذي لا يحب الديمقراطية ؟
تسألونني ما معنى هذه الكلمة التي تسمعونها هذه الأيام
كثيراً ؟ تعريفها بسيط : « إن الديمقراطية هي أن رهطاً
من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهرياً قدره أربعون جنيهاً
لرهط آخر من الثروة العتاة » ! لعل هذا المنطق يدهشكم ،

ولكن تلك هي الحقيقة ! هنالك أعجب من ذلك . فإن جوف الحقيقة مملوء دائماً بالغرائب لمن أراد الغوص عليها . إن بيننا معشر المرشحين وبينكم معشر الناخبين سوء تفاهم كبير . فأننا نطلب إليكم أن تخدمونا وأنتم تحسبون أننا وجدنا كي نخدمكم ، أنتم تظنون البرلمان هو المكان الذي نتكلم فيه عنكم طول الوقت وعن جوعكم وفقركم وجهلكم . ونبحث تحت قبته كل يوم عن وسائل رخائكم ورقيقكم ؛ ونحن نرى في تلك القبة الذهبية شرفاً رفيعاً لمن استطاع أن يقتنص له تحتها مقعداً ، ونرى في عضوية المجلس لقباً نتوج به أسماءنا ونزين به (بطاقاتنا) . إن عضوية البرلمان في نظرنا ليست إلا عربة (الرولز رويس) التي نرفع بها مركزنا الاجتماعي في أعين الشعب . ونحن إذ ننفق المال في هذا السبيل إنما ننفقه ونحن معتقدون أننا نشترى به وظيفة أو لقباً

أو مقاماً ، فإذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم ،
ووجدنا أيديكم العارية السمرء تحملنا إلى داخل ذلك
المكان ، فاننا نتربع فيه كالعراس في (القترينات) ،
ومها صحتهم وناديتهم وصرختم بعد ذلك فاننا لا نسمع
أصواتكم لأن بيننا وبينكم حاجزاً من زجاج ، ولن
تستطيعوا أن تلمسونا أو تقربونا ، ولكنكم تستطيعون
أن تشيروا بأصابعكم من خلف البللور ، فنحسب ذلك
منكم إعجاباً ، فزداد صلفاً وتها !

أيها الناخبون ، عجباً إني حقاً لعل غاية السذاجة إذ
أفضى إليكم بكل هذا في خطبتي التي على أساسها انتخب .
ما العمل الآن ؟

أنتخبوني برغم ذلك ؟ لعل صراحتي على الأقل

تشفع لي ؟ !

السمازود

إن تعاقب الوزارات السريع في مصر ، يقذف
اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحاب (المعالي)
لا يصنعون شيئاً غير الانتظار في (ميادين) السياسة ،
ممدودى الأ كف . ينتظرون ماذا هؤلاء المتعطلون ؟
ينتظرون دورهم في العودة إلى الركوب .

نعم . إن (الحكم) أصبح الآن مثل أرجوحة
(الخيول الخشبية الدائرة) التي يركبها الأطفال في مقابل
مليارات ، ولوأعطى طفل ألف مليم لأفقها كلها في هذه
اللعبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق
هذا الحصان الخشبي المطلي بالذهب ، الملون بأزهي
الألوان الخادعة ، وإن دوره ينتهى ورأسه يميل من
الدوار ، فلا يفيق الا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على

الأرض ، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور
بغيره ، وفي قلبه الصغير حسرة ، وفي عينيه الزائغتين
علامات الصبر النافذ ، إلى أن تنتهي الدورة فيخفق قلبه
أملًا في أن يعود إلى الركوب ، وهكذا دواليك !

أما الفائدة من ذلك فلا شيء غير اللهو والسرور ،
فهو متى امتطى صهوة الحصان الخشبي تملكه الغرور ،
وظن أن هذا غاية الأمل ، وأنه قد وصل . ويلعب
برأسه دوار «الأرجوحة» ، أو دوار السلطة الباطلة
و«الفروسية» الكاذبة ، فيقنع بذلك ولا يفعل شيئًا غير
ازدراء الواقفين في الانتظار وهو يمر بهم مر البرق
متعاليًا متصاليًا صياح اللذة والظفر !

فالحياة في مصر لهو في لهو ، وتعطل إلى جانب
تعطل ، وفراغ إلى جانب فراغ . الجميع من شبان
وسياسيين ، وقادة ومقودين ، لا عمل لهم غير التطلع

إلى خيول « المناصب الحكومية » الخشبية وهى تدور !
وهذا الروح العام قد أثر فى روح الشعب كله ، فنحن
لا نكاد نرى طرقات مصر خالية من أناس أشداء
يتطلعون إلى موائد المقاهى ، ويمدون أيديهم يطلبون
شيئاً ، لقد سرت روح البطالة والسؤال فى كل طبقات
الشعب ، الجاهل منها والمتعلم ، وكدنا نعتقد أن مصر قد
نسيت أن فى الوجود شيئاً يسمى العمل والكسح
والاعتماد على النفس ، وأن مصر قد أصبحت بلداً تخفق
عليه راية « التسول » العام ، وهنا الخطر الداهم ، ولا
أبالغ إذا قلت إن روح « الشحاذة » موجود فى كل
نفس مصرية فى الوقت الحاضر ، فالوزير الذى تسول
طويلاً فى انتظار منصبه لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح
حتى يرى هو الآخر أفواج المنتظرين من أصحاب السؤال
يمدون أيديهم ليعطيهم مما أعطاه الله ، فيثقلون كاهله

بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء عقوبة أو التماس منحة ، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومي في التخلص من هؤلاء السائلين .

وتمكنت هذه العادة المردولة إلى حد نرى معه بعض الناس ينتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ليقرأوها «شهادة» ، وإلى حد أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألني نسخة من كتي (شهادة) ، ولا أستطيع أن أجلس في مكان حتى أسمع من حولي أصوات الالاحاح في سؤال شيء من الأشياء .

حقيقة إن الحياة في مصر أصبحت لا تطاق ، فاما أن يتغير هذا الروح العام وإما أن نياس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام .

على أنني أعود فأقول دائماً إن الذنب في كل هذا واقع على كاهل القادة وخدمهم من رجال الحكم والسياسة ،

فهم الذين علموا الشعب كله وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح ! ولو أن الشعب رأى رؤوسه ورجالاته يعملون في سكون ، لخيّل وعمل هو أيضاً بغير صخب ، ولأصبحنا حقيقة شعباً متحضراً ، يعمل ولا يتسول .
أريد أن أضع تحت أنظار وزرائنا ، مثل أبي بكر يوم ولي الخلافة ، فقد واصل عمله في بناء الدولة الفتية حتى رضى واطمأن ، فجهز إبله ذات صباح ، وأراد أن يخرج في تجارة له ، فاعترضه الناس دهشين :

- كيف تخرج في تجارتك وأنت الخليفة ؟

- وكيف أعيش وتلك صناعتى ؟

نعم ، هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت ، أن سياسة الدولة عمل يرتق منه ، إنما هو فى نظره واجب محتوم عليه كعضو من أعضاء الأمة ، أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغى أن يكفلها عمل آخر وكذا آخر !

شجرة الحكم

جنة الخلد بأشجارها وأطيارها وحورها
وقطوفها الدانية : «صاحب الدولة» يمشى
باسما مرحا بقرب «الكوثر» متأبطا ذراعى
حوريتين جميلتين

الحرورية الأولى - (باسمة) ما رأيك فى اللجنة ؟
صاحب الدولة - بديعة ، كنسائها . ولو كان
بقبضتى زمام الحكم هنا لأنشأت على هذا الكوثر
«كورنيش» ..
الحرورية الأولى - (باسمة) مثل كورنيش
الاسكندرية !

صاحب الدولة - (يلتفت إليها فجأة) ما كنت أحسب
نساء اللجنة على مثل هذا الذكاء . . .
الحرورية الأولى - من حسن حظنا أن يدخل

مثلك اللجنة . إني لأتساءل لو لم تجيء أنت ها هنا ،
منذا كان يقدر ذكاءنا ويتذوق جمالنا ؟ أهؤلاء النساك
أصحاب اللحي الكبيرة والسبح الوقورة ؟ !

صاحب الدولة - إنك ظريفة حقا . أين رأيتك
قبل الآن ؟ ألم تتقابل في الدنيا في مكان ما ؟ في سهرة
مثلا . أو في

الحرورية الأولى - كلامطلقا . لم أرك قبل الساعة ،
ماذا كنت تصنع في الدنيا ؟ وأين كنت ؟
صاحب الدولة - كنت في مصر ، رئيسا للوزارة
وصاحب حزب من أقوى الأحزاب ، بنيته ييدى في
أقل من شهر .

الحرورية الثانية - صاحب حزب ؟ ما هو الحزب ؟
أهو « قيلا » أم هو « عمارة » ؟
الحرورية الأولى - كلا أيتها البلهاء ، بل هو « عشة

في رأس البر « فهي وحدها التي يمكن أن تبني في أقل
من شهر .

صاحب الدولة - (متمعضا) أنتم لا تفهمان شيئا في
السياسة . فلنتكلم فيما يفهمه النساء .

الحرورية الثانية - تقول إنك كنت رئيسا للوزارة ؟
ما معنى هذا ؟

الحرورية الأولى - ألا تعرفين رئيس الوزارة ؟
يا لك من حمقاء ! هو رئيس الحكومة الأمر الناهي
الذي يعين ويرفت ويحيل إلى المعاش بقرار من مجلس
الوزراء . ويعطى ويمنع ويتصرف في الميزانية والمصاريف
السرية ويتزاحم حوله ذباب المحاسيب والمقررين ويجتمع
ببابه فريق العساكر والمخبرين ، وتتقدم سيارته
الموتوسيكلات والكونستبلات . حتى إذا ما استقال
أو أقيل تخاطفته مجالس إدارات الشركات . . .

صاحب الدولة - (يغمض عينيه) آه لا تذكريني ،
لا تذكريني !

الحرورية الأولى - (تنظر اليه) ماذا دهاك ؟

صاحب الدولة - (يشوب الى نفسه) لا شيء . (يتنهد)
إن الدنيا كانت حقيقة حلوة .

الحرورية الثانية - (تلتفت خلفها وتصيح) صه . انظر ،
انظر ! من هذا الرجل الأنيق بين حوريتين !؟

صاحب الدولة - (يلتفت دهشاً) ماذا أرى !؟ زميلي !

« بدنو الرجل الأنيق فما يكاد يلمح صاحب
الدولة حتى يترك حورتيه ويفتح فاه من الدهشة
والعجب » .

صاحب المعالي - مستحيل !! دولتك في الجنة ؟
هذا غير معقول !

صاحب الدولة - (يترك هو كذلك حورتيه ويقبل على زميله)
معاليك هنا ؟؟

صاحب المعالى - دولتك ...

(يتعاقبان)

صاحب الدولة - أأنت حقيقة فى الجنة ؟ !

صاحب المعالى - وأنت ؟ أخبرنى هل أنت ...

أنت ... هنا ... ؟

صاحب الدولة - (باسم) كما ترى .

صاحب المعالى - هذا من أعجب ما يتصوره

العقل البشرى . دولتك فى الجنة ...

صاحب الدولة - ما وجه الغرابة ؟

صاحب المعالى - كيف أدخلوك هنا ؟ !

صاحب الدولة - أدخلونى كما أدخلوك ، وكما

أدخلوا غيرى من ... المؤمنين الصالحين ..

صاحب المعالى - المؤمنين الصالحين !

صاحب الدولة - (باسم) أتشك فى ذلك ؟

صاحب المعالي - تدخل الجنة بعد أن حصل منك

في دنياك ما حصل ؟ ؟

صاحب الدولة - ماذا حصل ؟ وإذا كان قد حصل

ما حصل ، فهل منع ذلك من دخولي في الدنيا أى مكان
أحببت الدخول فيه ؟ إني أستطيع أن أذهب إلى أى
جهة تروقني ، وأستطيع أن أدخل أى مكان يعجبني ،
وأستطيع أن أدخل في .. عينيك .

صاحب المعالي - نعم . لباقتك ودهاؤك وانتهازك

الفرص . انتظر . ألا تكون انتهزت فرصة إغفاءة من
حارس الجنة وانسللت كما هي العادة ..

صاحب الدولة - أو تظن حارس الجنة يغفى ، أو

يسهو أو يغفل ؟

صاحب المعالي - صحيح . إنه لا يمكن أن يكون

مثل أهل مصر . إذن كيف دخلت ؟

صاحب الدولة - وأنت كيف دخلت ؟ أليس لي
أنا أيضا الحق في التساؤل والتعجب ؟

صاحب المعالي - لك الحق بلا شك . . أنا نفسي
عجبت لأمر نفسي . ولكن بعد أن رأيتك هنا بعيني ،
لم يعد شيء يدهشني .

صاحب الدولة - اسمع يا باشا ! ألا يكون دخولنا
الجنة حصل على طريقة دخولنا البرلمان سنة (. . .) !
صاحب المعالي - كنت أصدق ذلك لو كان
انتخاب أهل الجنة يحصل بواسطة رجال إدارة وعمد
وخبراء كالذين كانوا في الدنيا تحت سلطة دولتك .

صاحب الدولة - صدقت . انتخابات أهل الجنة
لا بد أن تكون مضبوطة .

صاحب المعالي - مضبوطة ! ! وافرحته ! ! نحن
لأول مرة إذن ننتخب انتخابا صحيحا في شيء ما !

صاحب الدولة - هذا لا شك فيه .

صاحب المعالي - ولكن ما السبب في اختيارنا ؟

هذا ما يحيرني دائماً !

صاحب الدولة - ألا يمكن أن نكون قد صنعنا

بعض الحسنات دون أن نتذكر ؟

صاحب المعالي - أنا على كل حال لا أذكر لك شيئاً .

صاحب الدولة - ألم أطعم مرة فقيراً ؟ ألم أنشئ

مطاعم للفقراء ؟

صاحب المعالي - إنشاء مطاعم للفقراء لم يكن

الغرض منه إطعام الفقراء .

صاحب الدولة - سبحان الله في طبعك . وأنت

ما حسناتك ؟

صاحب المعالي - لقد بنيت عمارة شاهقة في

أعلى بقعة في القاهرة .

صاحب الدولة - أتسمى هذه حسنة ؟
صاحب المعالي - لقد عملت بمبدأ « إعمل لدنياك
كأنك تعيش أبداً » .
صاحب الدولة - وأين الشطر الأخير من المبدأ ؟
صاحب المعالي - هل له شطر آخر ؟
صاحب الدولة - « واعمَل لا آخرتك كأنك تموت
غداً » .

صاحب المعالي - لقد عملت ما قدرت عليه وهو
خمسون في المائة من المبدأ ... أليس فيه الكفاية ؟ ومع
ذلك ، فلنكن عمليين كما كننا في الدنيا ، العبرة بالنتيجة .
وهانحن الآن في الجنة ، فما لنا والبحث عن الأسباب !
صاحب الدولة - في الواقع ، نحن الآن في الجنة .
فماذا نستكثر على أنفسنا الخير ؟ أتريد الحقيقة ؟ إن
الجنة هي لمن يستطيع أن يتذوق الجنة .

صاحب المعالى - يشهد الله وتشهد دولتك أنى
من خير المتذوقين للنعيم فى الدنيا والآخرة .
صاحب الدولة - أخبرنى يا باشا ! إن الجنة بديعة ،
أليس كذلك ؟

صاحب المعالى - طبعاً . أبداع من النار على كل
حال ...

صاحب الدولة - ألا ترى مع ذلك أنه ينقصها
شجرة ذات فاكهة شهية .

صاحب المعالى - شجرة «الحكم» .

صاحب الدولة - كيف حذرت ؟

صاحب المعالى - ما من فاكهة ألد منها . من
ذاقها مرة فلن ينساها أبد الدهر .

صاحب الدولة - ولماذا لا توجد هذه الفاكهة

هنا ؟

صاحب المعالي - لأنه لا يمكن أن يوجد هنا
حاكم ومحكوم ولا ظالم ومظلوم .

صاحب الدولة - أصبت . وحتى لو وجدت هذه
الشجرة هنا لتكالب عليها الناس أجمعون وخصوصاً
أصحاب الدولة والمعالي السابقين من عهد نوح إلى يوم الدين .
صاحب المعالي - مؤكّد . ولما تركوها غير
أغصان عارية ليس فيها ثمرة واحدة .

صاحب الدولة - حقاً ، إذ ليس لهذه الفاكهة شوك
يصد الناس .

صاحب المعالي - الشوك هو المسؤولية . وفاكهة
الحكم كما ذقناها في مصر لم يكن لها شوك ولا نوى .
بل كانت سهلة المأخذ سائغة المأكل . أما في أوروبا
حيث رأى العام المتيقظ يحيط هذه الفاكهة
بأسلاك شائكة من المسؤولية فإن كثيراً من الناس

يعافونها ويخشون أن يمدوا لها يداً .

صاحب الدولة - إن وجدت هذه الفاكهة هنا
فهى ولا شك من النوع المصرى السائغ اللذيذ .

صاحب المعالى - كفى يا دولة الباشا ! إنك تسيل
لعابى . فلترك هذا الموضوع ولنقنع بما قسم لنا . فان
الجنة فيها ما يمكن أن يشغلنا ..

صاحب الدولة - (كالتخاطب لنفسه معزياً نفسه) ومع
ذلك ... فان لذة الوزارة قد قلت ؟ منذ أن أدخل النظام
البرلمانى . ألا تذكر ؟

صاحب المعالى - نعم ، لقد أصبح أى شخص
أسهل عليه أن يكون وزيراً من أن يكون موظفاً فى
الدرجة الثالثة !

صاحب الدولة - وا أسفاه ! لم تعد الكفاءة
شرطاً لدخول الوزارة ؟

صاحب المعالي - ومتى كانت الكفاءة يا دولة
الباشا في مصر شرطاً لدخول الوزارة ؟

صاحب الدولة - صدقت . ولكن في العهد
القديم ، يوم كان ولي الأمر هو الذي يختار ، سواء كان
هذا الولي مصرياً أو أجنبياً ، فهو وإن كان يخضع هو
أيضاً لاعتبارات خاصة في الاختيار ، إلا أنه كان دائماً
يراعى توفر شروط الكفاءة في الإدارة الحكومية على
الأقل ، إلى جانب شروط اللباقة والكياسة والمقدرة
على إقرار النظام وحفظ الأمن الخ الخ . . . ولكن
انظر إلى الاختيار وقد ترك أمره الآن في يد الشعب
إنه كما قال «هتلر» في إحدى خطبه : « قد يكون من
الأسير أن نأمل في رؤية جمل يمر من ثقب إبرة ، على أن
نأمل في رؤية رجل عظيم يستكشف عن طريق انتخاب
الجمهير » .

صاحب المعالي - هذا يا دولة الباشا قول يجوز في
ألمانيا وأوربا، أما في مصر فمن قال إن الشعب أو الجماهير
تنتخب أحداً ؟

صاحب الدولة - صدقت ، إن في مصر الحال أيضاً
أعجب من ذلك . فإن الشعب لا ينتخب ، ولا يدرى
ما هو الانتخاب . ولكنه يرى معدات « الموسم » قد
نصبت ، ويسمع الطبل والزمر ، ويجد أشخاصاً قد أقبلوا
في السيارات « يجمعون » أصواته بالنقود والوعود .
فشأنه في « موسم الانتخاب » كشأنه في « موسم دودة
القطن » سواء بسواء ، حيث يرى سيارات مقاولي
الأنفار (الترحيلة) قد أقبلت تجمع الأنفار بالحبوب والنقود .
وهكذا يعمل جماعة من المقاولين لحساب جماعة من الممولين
يصبحون في الغد هم الوزراء ! فأين إذن الكفاءة في كل
ذلك ؟ المسألة بسيطة : جمع « الأصوات » وجمع « الدودة »

إن هما إلا عملية واحدة في أرض مصر ، عمادها : « النقود ومقاولو الأنفار » من جانب و « ساعد الحكومة » من جانب آخر . فمن آزره أحد العاملين ، فقد جمع « دود » أطيانه وجمع « أصوات » أنفاره ، وضمن « المحصولين » في دائرته السعيدة وناحيته العامرة ! ! وهكذا ينتهي الموسم ويكشف كل فريق عن أوراقه ، فيصيح الفريق الأ أكثر مالا ، أو الأقوى سلطانا ، أو الأ مهردجلا صيحة الانتصار ! ويعلم أن الأمة قد أحسنت « الاختيار » !

صاحب المعالي - (يضحك) هذا صحيح . كل هذا صحيح . ولكنك نسيت يدولة الباشا أنك لجأت إلى كل هذه الوسائل وخذقتها أكثر من غيرك !

صاحب الدولة - إني معترف بذلك . وهل كنت تريد مني أن لا أتنفع خير انتفاع بهذا الطريق الجديد السهل المختصر للوصول إلى الحكم ؟ ما دامت تلك كانت

«نعملة» العصر التي تظفر بالغنيمة ، فهل من لوم على إذا

حذقت التعامل بها في ذلك السوق ؟

«تتهامس الحور الأربع ، وقد كن يسمعن ما يدور
بين الوزيرين صامتات دهشات وهن على مقربة
منها»

حورية - (تسأل جارتها) : عجيباً ! كل حديثهما في
السوق والموسم والوصول إلى الحكم ولذة السلاطة
والانتصار على الفريق الآخر ، والظفر بالغنيمة . ماذا
كان عمل هؤلاء في الدنيا ؟ !

إحدى الحور - وزراء !

الحورية - اللهم حكمتك ومشيتك ! ولماذا إذن
أدخل الجنة مثل هؤلاء ؟ !

إحدى الحور - تقديرًا لبراعتهم ! فقد استطاعوا
الاحتفاظ باجلال أمتهم لهم ، بعد كل ذلك !

الحورية - أصبت ! حقا إنها لبراعة ! !

الأحزاب والشعب

سألتني إحدى المجلات السياسية عن رأي في
أحزابنا المصرية ومدى قيامها بواجبها نحو تحسين حال
الشعب فقلت :

- إن المفروض في ممثلي الشعب ، أن يتقدموا إلى
المقاعد النيابية ، ببرامج ثابتة واضحة ، محدد فيها بالدقة ،
الخطط ، ووسائل التنفيذ ، لمطالب طبقات الشعب
المختلفة التي يمثلونها . . ولكن الذي يحدث اليوم ، هو
غير ذلك ، فإن كل مشروع حيوى يهم الشعب ، إنما
يصدر عن جهات أخرى غير ممثلي الشعب !.. ولم نعد
ندرى ، فيم يمثل هؤلاء الممثلون الأمة ؟!.. خذ مثلاً ،
مشروع مقاومة الحفاء ، ما كان احراه ان يكون جزءاً
من برنامج حزب من الأحزاب .. إن كلمة أحزاب ،

كما تفهم في مصر ، تطابق في الحقيقة على سبيل
التجوز ، إذ ليس في مصر حزب ، بالمعنى الحقيقي لكلمة
حزب ، كما تفهم وتستعمل في النظم الديمقراطية
الصحيحة !.. إنما في مصر «فرق» منفصلة تسمى أحزابا
لا هم لكل فرقة من هذه (الفرق) ، إلا (توزيع) المقاعد
البرلمانية ، والحصول على المناصب الوزارية ، وتنظيم
حركة (تذاكر) الانتخاب .. أما برنامج (الرواية)
فليس من هم أحد التفكير فيه ! فالأمر في ذلك ، يسير
على نمط حفلات التمثيل ، (ومتعهديها) الذين يركزون
كل نشاطهم ، في مسألة توزيع المقاعد ، وتحصيل قيم
التذاكر .. أمام مسألة (البروجرام) والغرض من الحفلة وما إلى
ذلك ، فلا يلتفتون إليه ، ولا يجعلونه من شأنهم !..
وإني لأحب هنا أن أقول ، إنه قد آن الأوان ، لأن
يسأل الشعب عن البرامج ، قبل شغل المقاعد .

إن الشعب اليوم ، قد تغير في نظري ، وإن عقليته
قد تكونت ، واصبحت له رغبات حيوية تمس صميم
غذائه اليومي ، وحياته المادية . . انه يطالب اليوم أن
يعيش ، لا معنويا فقط ، كما كنا ننادى بالأمس ولكن
ماديا ايضا ، عن طريق اللقمة المتوفرة للملايين من
المحرومين .

— ألم تتجه العناية في هذه الأيام إلى طبقات
الشعب الفقيرة ؟

— هذا صحيح . ولقد كثر جمع الصدقات ، ونشطت
حركة التبرعات . . ومهما تكن الدوافع إلى ذلك ، فهي
على كل حال ، عواطف كريمة ، تنم عن تيقظ روح
الأريحية في نفوس ذوى الفضل ، من الأغنياء والقادرين
على انه ينبغي لنا ، مع ذلك ، أن نتساءل : إلى متى نظل
في مصر ، ونحن نملك فيها نظاما ديمقراطيا ، نعتقد أن

إصلاح شؤون الطبقة الفقيرة .. معناه التصديق والاحسان؟! وإلى متى ، ونحن لدينا برلمان ، لا نجد فيه ممثلين للملايين الطبقات الفقيرة ، يدافعون عما تراه هذه الطبقات منضاهما ، مصالحها! ما معنى الديمقراطية إذ لم تكن هي تمكين طبقات الشعب كلها . على اختلاف مراتبها ومطالبها ، من الدفاع عن نفسها ، بنفسها ، تحت قباب المجالس النيابية ؟!

ما من برلمان ، في أى بلد ديمقراطى فى العالم ، يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه .. لأنه ما من أحزاب فى العالم تكونت هذا التكوين الشخصى المرتجل ، كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة !. فى البلاد الأخرى أحزاب ، ذات مبادئ مقررّة كل منها يدافع عن حقوق طبقة من طبقات الأمة ، مما ضمن تمثيل الطبقات المختلفة على نحو يكفل التوازن

بين المصالح . بينما أحزابنا ، على تعددها وكثرتها لا تمثل في حقيقة الأمر ، غير طبقة واحدة ، هي طبقة الملاك ..
هي التي نسمع صوتها في البرلمان ! وهي التي اتخذت لنفسها صفة القوامه على الطبقات الأخرى . وهي التي تستطيع أن تمنع وتحرم الطبقات الأخرى ، حتى من حق الاعتراف بنقاباتها التي تنظم شؤونها ، وتدافع عن حقوقها !! ويحضرني هنا ، مثل أحب أن أذكره ، فقد وجدت في حانوت حلاقة ذات مرة ، حلاقين احدهما يعمل الى جانب الآخر ، ويتقاضيان اجرين متساويين ، الأول مصرى ، والثانى يونانى ، فعلمت شيئاً عجيباً ..
فقد قال لى العامل المصرى ، إنه وهو فى بلاده ، لا يستطيع أن يعلم ابنائه بالمجان ، ولا أن يستشفى بالمجان .
وإنه لا يجد أحداً ولا هيئة تعينه على تكاليف العيش ..
بينما زميله اليونانى يعلم اولاده كلهم بالمجان ، فى المدارس

اليونانية ، ويستشفى هو وعائلته بالمجان في المستشفيات
اليونانية ، لأن هناك هيئات ونقابات يونانية ، تعنى أتم
العناية ، بمساعدة العمال والأجراء اليونانيين ! . وقد روى
لى هذا العامل المصرى أيضا ، أنه ذهب بابنته الصغيرة
يوما إلى مدرستها الأولية ، فوجد عاملا مصريا آخر ،
قد عجز عن دفع مصروفات ابنته ، علي ضآلتها « عشرة
قروش شهريا » فاضطر إلى العودة بها إلى البيت ، مما حز
فى نفس زميله ، فأخرج « أجره اليومى » من جيبه
ودفعه من أجله .

لا شك أن أكثر الناس يوافقوننى على أن هذا
الوضع للأشياء يجب أن يتغير .

الفكر والشعب

سألتني كذلك مجلة سياسية أخرى :

— هل أنتم من رأى الدكتور حافظ عفيقي باشا المنشور في مقدمته لترجمة الفرنسية لكتابكم «يوميات نائب في الأرياف» من أن الكتاب الاجتماعي في القرن الماضي كانوا هم قادة الإصلاح في أوروبا وأمريكا؟

— بالتأكيـد . بل لا يزال الكتاب حتى اليوم هم الذين يمهـدون السبيل للإصلاحات والانقلابات الاجتماعية المقبلة . وإني أيضاً من رأى الدكتور عفيقي باشا في أن كتابات روائى مثل شارلس ديكنز كان لها الفضل في حمل ساسة إنجلترا من محافظين وأحرار وعمال على وضع المسألة الاجتماعية في رأس برامج أحزابهم . واليوم بالذات برغم الحرب وأهوالها لا يفتأ ويلز و برناردشو

وبرستلى يرسمون الاتجاهات التى ينبغى أن يتجه إليها
بعد الحرب لا الشعب البريطانى وحده بل البشر كافة .
فهم يرغبون انقضاء عهد الشقاء الاجتماعى وبزوغ عهد
يستطيع أن يعيش فيه كل فرد حياة جديدة بالكرامة
الآدمية فلا اغراق فى البؤس ولا اغراق فى الترف .
بل نظام يقوم على التوازن الاجتماعى والتضامن
والتعاون . نعم الكتاب والمفكرون هم قادة الإصلاح وهم
واضعوا أسسه وخططه فى كل زمان ومكان .

ولئن كانت حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر قد
تأخرت حتى اليوم فذلك سببه تقصير الكتاب
والأدباء . انى اتهم بملء فى الأدب المصرى بهذا الجرم .
أن الأدب فى مصر لم يكن إلى عهد قريبة غير
حلية عاطلة فى معاصم الأدباء . لقد كان يعيش هؤلاء
الكتاب لا فقط على هامش المجتمع بل على هامش

حياة الآخرين من اصحاب الجاه أو الثراء . لم يكن
الأدب في مصر اذن اداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع
ولم تكن اقلام الكتاب ابواقا توقظ النائمين ولكنها كانت
معاذف ينعس على انغامها المترفون . وإذا كان هؤلاء
هم كتاب أمة وهذا هو أدبها فلا عجب إذا ظلت حال
المجتمع المصرى على ما نراه اليوم . .

على أن الأمر بالضرورة قد تغير الآن . وإنك
تستطيع أن تقول أن الأدب في مصر يتجه في الطريق
الصحيح وأن كثيرا من الكتاب المعاصرين نشروا كتباً
وأفكاراً تتصل بصميم المجتمع ؛ وأن آراءهم تسمع
وتحترم وتؤثر أحيانا في اتجاهات الحياة العامة . .

— كنتم أول من اقترح منذ عامين انشاء وزارة
الشئون الاجتماعية في حديثكم المشهور عن النظام البرلمانى
وها هي ذى قد انشئت .

- إنى اقترحت أن يعدل اسم وزارة الأوقاف واختصاصها وتجعل «وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية» بهذا النص ، وكانت فكرتى فى ذلك ان يتسنى تحويل اموال الاوقاف إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة كاللاجىء والمستشفيات والنوادر الرياضية الخ . ولكن فكرتى قد أدت إلى انشاء وزارة مستقلة لشئون المجتمع فضاعف ذلك التفات الناس إلى الفكرة الاجتماعية فى ذاتها . وكان فى مجرد وجود هذا الهيكل الرسمى المخصص للمسألة الاجتماعية أقوى دعاية لهذه المسألة فى انحاء البلاد . مما جعل الشعب كله يهتم بالمسألة الاجتماعية بعض اهتمامه بالسياسة . وأصبحت تثار فى البرلمان قضايا الفلاح والعامل وحقها فى حياة انسانية معقولة ، وحقبة الفقير وحقه فى معونة الغنى . وأصبحنا نسمع كبار الأمة يتحدثون عن ضرورة الرقى بمستوى حياة

الشعب . وكثرت المحاضرات في كل مكان وتكونت
 جمعيات الاصلاح . وارتفعت أصوات الرحمة من القلوب
 وكلمات العدالة والانصاف من الافواه كلها مجمعة على
 انه ينبغي وضع حد لما نراه من استئثار مئات من أهل
 هذه البلاد بالخيرات وترك الملايين في جوع وعري
 كالسائمات . ولكني أقول باعتباري كاتباً أن الأمر لم
 يعد في حاجة إلى توجيه . فإن حال الشعب الآن لا
 يختلف فيه اثنان . وإن قادة الرأي ورجال الأمة
 ومفكريها يعرفون علل الشعب أتم معرفة ويوضحونها
 ويصفون لها العلاج . . وفي كل يوم يزداد عدد هؤلاء
 المفكرين والدعاة وتتسع دائرة المصغين إلى رسالتهم . إلى
 أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه المسألة الاجتماعية هي
 المسألة الأولى في الدولة ، لها صحافتها ولها سياستها ؛
 وعلى أساسها تتقدم الأحزاب إلى الحكم ، ويكون

النجاح أو الاخفاق في تحقيق برامجها هو الذى يبقى
الوزارات أو يسقطها .

فها أنت ذاترى ما ارمى إليه : ان المسألة الاجتماعية
عندنا هي في طور «الهواية» ولن تدخل في طور «العمل
الجدى» إلا إذا طالب بها الشعب نفسه .. ولما كنا في
نظام ديموقراطى فان الشعب عندئذ يكون أحزابه
وينتخب ممثليه طبقا لهذه المطالب . فالى أن تصبح إذن
المسألة الاجتماعية في مصر ذات تأثير مباشر في أداة
الحكم كالمسألة السياسية سواء بسواء ، فليس لنا أن نقول
أن في مصر مسألة اجتماعية على الاطلاق .

« كادر » المقامات

انى مقر للتخفيض الذى حدث فى كادر المرتبات .
فقد آن لهذا المخلوق الذى يسمونه (الموظف المصرى
الكبير) أن يتواضع لله وللناس . هذا الآدمى الذى
خلقه الله بمواهب تساوى عشرين جنيها فى الشهر فقدرت
له الدولة مواهبه بمائة جنيه فى الشهر . هذا الآدمى الذى
القت به الطبيعة على الأرض ليزرع بسواعده العارية
عملا مسؤولا ويحصد ثمرا معقولا . فاذا هو قد انزرع
بين اوراق فارغة على مكتب مساحته فدان ليحصد
آخر كل شهر غلة ٥٠٠ فدان . هذا الآدمى الذى صنعت
له اجيال الشباب المصرى فى نفوسها تمثالا ذهبيا تعبد
فصرفها عن الالتفات إلى المغامرات الحرة العظيمة التى
قام بها اشخاص اسمهم (فورد) و (روكفلر) و (كروب)

بل حتى اشخاص في المحيط المصرى اسمهم (عدس) و
 (بنزيون) و (موصيرى) هذا المثل الأعلى الحكومى الذى
 غرسته فى نفوسنا المرتبات الضخمة لعمل (الروتين)
 الفارغ ، هو الذى افقدنا عدتنا من الرجال الأكفاء
 المنتجين ، وهو الذى اضاع من ايدينا ميادين الثروة
 الحقيقية ، فاحتلها الأجنب الأحرار اصحاب النشاط ،
 الواقفون بالمرصاد .

...

تحقيق آخر ينبغى ان نفكر فيه بعد ان انتهينا
 من كادر المرتبات ذلك هو كادر (المقامات) . (مقاماتنا)
 ايضا متضخمة اكثر مما ينبغى . تضخم غير طبيعى .
 وهو ما قد يسمى فى عالم الطب بالانتفاخ . وفى عالم
 الاجتماع (بالنفخة) وكلاهما فيما اعتقد شئ واحد . وعلمته
 واحدة . وكلاهما إذا فتح بالشرط وجد داخله (هواء)

فهى مجرد أسماء لا معنى لها وهى لا ترفع ولا تخفض .
ولا ينبغي لها أن تفعل . ويكفيها أن ننظر حولنا فلا
نجد أمة واحدة من تلك الأمم المجيدة التى تعجب بالعظماء
فى مختلف الفروع والأعمال ، قد سارت على ما نسير
عليه نحن الأمة الصغيرة الفقيرة . فان (مستر) (تشمبرلين)
هو بلا شك من أرفع رجال الأرض مقاماً فى العصر
الحاضر ، ومع ذلك يشارك (مستر) جون كمسارى المترو
فى لندن لقبه المتواضع و (مسيو) دلاديه هو اليوم من
أقطاب العالم ولا لقب عنده إلا ما عند (مسيو) ريمون
خادم المطعم الذى يأكل فيه . تلك هى العظمة . وتلك
هى الديموقراطية . بل أن (الهر) هتلر هو أيضاً لا يمتاز
عن (الهر) شاخت سائق سيارته فى اللقب . قد يسند
إليه أحياناً لقب (المستشار) غير أن هذا حقيقة لا لقب .
بل أقل من حقيقة . لأن هتلر لا ينتظر حتى يستشار

في أمر من الأمور . وهو المتصرف وحده في مصير
بلده المؤثر في أقدار الشعوب . ولماذا نذهب بعيدا وقد
كان الامبراطور العربي العظيم عمر بن الخطاب لا ينادى
إلا بلفظ واحد : يا عمر . . .

...

انه في رأي داء تصاب به غالباً الأمم الصغيرة
التافهة فهي كالطفل يحب كل ما هو براق طنان أجوف
وليت هذا الداء محصوراً في طبقة كبار الموظفين وخدم
بل انه مع الأسف قد تعداه إلى جسد الأمة كله . فاذا
كل من لبس (بذلة) يتوق أن يناديه الجميع بلقب (بك)
ويكتب له الجميع (صاحب العزة) وأصبح لقب (افندى)
سباً فاحشاً . ومن أراد أن يشتم أحداً في الطريق العام
أو على صفحات الجرائد أو على مظروف خطاب . فما
عليه إلا أن يقول له يا (افندى) .

...

من المسئول عن هذا المرض الخطير ؟ لا أشك في أنهم هم الموظفون الكبار أو قادة الأمر في البلاد من أصحاب «الرفعة» و «الدولة» و «المعالي» الخ الخ . فهم بتكالبهم على المظاهر الفارغة قد علموا الشعب أن يحترم الألقاب أكثر من احترامه لمجرد الأعمال .

فلعل الروح الجديد الذي يسرى اليوم في مصر الناهضة المستقلة يدفعها — في طريق العمل والبطولة الحقيقية — ويحفزها أيضا على التفكير في تغيير نظرتها إلى الألقاب وتعديل كادر المقامات بما يتفق مع الروح السائد الآن في العالم ومع طابع العصر الحاضر في كل دول الأرض ، الديموقراطية منها وغير الديموقراطية !!

مصر والشعار الدولي

قرأت تعقيبكم على اثارتي لحركة خلع الطربوش
فاستحو لي أن أبدى بعض حججى وأسبابى . وأبدأ
فأقول أن لا محل للقلق والخوف من اضعاف الروح
القومية إذا خلع الطربوش . فان الروح القومية هو فى
القلب الحار لا فى ذلك (القرطاس) الأحمر . وقد يكون
هنالك محل للخوف لو اننا كنا أول أمة فى الأرض
قادمة على هذا التغيير . أما وقد فعلت ذلك قبلنا أمم
شرقية هى الآن خير منا فى قوة روحها القومية فليس
لنا إذن أن نتردد أو نخاف . فما من أحد يستطيع أن
يقول ان اليابان ذات التقاليد الشرقية العريقة قد فقدت
روحها القومية يوم لبست ولبس مايكها وهو ذو صفة
دينية مقدسة اللباس الدولي الكامل . وما من أحد

يستطيع أن يقول إن النبي العربي كان له زى خاص .
فهو قد لبس القلنسوة ولبس اللأمة ولم يكن هنالك
فارق في اللباس بين مسلم ومسيحي ويهودى . واليوم
وقد اتجه العالم كله في حضارته القائمة هذه الوجهة الجميلة
وسن هذه السنة الحميدة التي ترمى إلى وحدة الزى في
الدنيا قاطبة . هذه السنة التي عرفها الاسلام منذ نشأته
فلم يحفل بزى أو بلباس حتى لا يجعل بين الناس فوارق
غير ما لبسته أرواحهم ونفوسهم . اليوم وقد شعرنا
بما جئنا إلى الوحدة والمساواة داخل حدود بلدنا ، بإزالة
الفوارق التي تشطر السكان إلى طائفتين غير متعادلتين .
اليوم ونحن مقبلون على حياة خارجية قوامها الاندماج
في عصابة الدول المتحضرة أى فائدة لنا فى أن نضع
بيننا وبين أمم الأرض ذلك الفارق الظاهر الصارخ
الذى ينادى فى كل حين بتخلفنا وحدنا دون غيرنا من

الأمم الشرقية المسلمة وغير المسلمة التي أعلنت للعالم نهضتها وقامت تجلس جنباً إلى جنب مع أرقى الدول حضارة . أما القول بأن تغيير لباس الرأس قد يجر إلى تغيير اللغة أيضاً . فالجواب عليه أن ننظر كذلك إلى غيرنا من الدول التي تماثلنا في الحال ولنبحث هل غيرت اليابان والصين وإيران والعراق لغتها ؟ بل متى كان الاتحاد في الزى يوجب الاتحاد في التفكير ؟ ان الملحوظ في حضارة اليوم انها وحدث الزى في شعوب الأرض مع عدم المساس بشخصية كل شعب وثقافته . وها هي ذى امريكا تماثل انجلترا في الزى وتتكلم الانجليزية مثلها ومع ذلك فان الأدب والثقافة وطريقة التفكير عند الامريكان هي غيرها عند الانجليز .

لا ينبغي إذن أن نتمسك بكلمة «الشعار الوطني» لشعبنا أو لحكومتنا المصرية . فان مستقبلنا قد تغير .

وبعد أن كنا شعبا منعزلا قد أصبحنا شعبا منضمّا إلى
 هيئة الشعوب الأخرى لنا ما لهم وعلينا ما عليهم فالأحرى
 أن نتمسك منذ اليوم بكلمة «الشعار الدولي» الرسمي
 لأنهم العالم كما تفعل كل أمة تركت عزلتها وظلمتها
 وخرجت إلى الحياة والمجتمع والنور .

وبعد فاني لشديد الأيمان بالتطور الطبيعي لما أراه
 من تطور الشرق السريع نحو حياة جديدة وتفكير
 جديد قوامه الخروج عن العزلة والجمود إلى التجدد والتعاون
 مع العالم . وإني لألاحظ تقدم مصر في هذا السبيل تقدما
 يشبه الركض على الرغم من المعارضة الكلامية الظاهرة .
 فالمرأة المصرية قد غيرت زيها في سكون وشجاعة .
 فوافقها الرجال دون جدال . هذا يداني على أن
 مصر تتحرك بالفعل وتسير وان كانت لا تزال تسير

مفتونة بالكلام والمناقشة أثناء السير . نعم كل هذا يثبت
عقيدتي انه لن يأتى عام ١٩٥٠ حتى تكون مصر متحدة
مع العالم المتحضر فى زيه الكامل المعروف . تلبية لنداء
التطور الطبيعى للأشياء .

من رد على تعقيب خليل ثابت عام ١٩٣٦

المعنى الانسانى لومعة الرى

مرة أخرى اناقش الحجة الوحيدة القائمة فى جانب «الطربوش» وهى كلمة «الشعار الوطنى» وأغلب المصريين مفتون بهذه الكلمة . وأغلب المصريين ما زال يعتقد أن من المفاخر أن يتميز بلباس خاص ، شعب صغير ، عن بقية شعوب الأرض القوية المتحضرة . وقليل من المصريين يرى من المساخر أن يتمسك رجل أورجلين بلباس احمر فاقع صارخ بين مئات وألوف من الرجال المحترمين المتحدين فى زى معروف . لقد لحظ بحق أحد المفكرين أثناء سياحة طويلة له فى آسيا وافريقيا : أن الشعوب المنحطة هى أكثر الشعوب تمسكا بتقاليد الزى وأكثرها حبا فى التميز عن غيرها من الأمم بأردية صارخة الألوان . وأزيد أنا على هذا المفكر بقولى أن

فكرة التميز بشمار خاص ليست فقط فكرة «بربرية» في عصرنا الحاضر ولكنها تدل كذلك على ضعف الإدراك في أمة من الأمم . فان من علامات الإدراك الضعيف عدم اتساع أفقه للأفكار الإنسانية . ولا ريب عندى الآن أن خوفنا وترددنا في مسألة كمسألة الطربوش وتمشيق الكثيرين بكلمة «القومية» سببه الوحيد أننا لم نزل في حالة (عزلة ذهنية) لا أكثر ولا أقل . فنحن في الواقع لم نتصل حتى الآن بالعالم المتحضر اتصالاً يشعره بوجودنا ويشعرنا بأننا جزء منه . فنحن في حقيقة الأمر شعب صغير لا وجود له حتى الآن على خريطة الفكر الإنساني المتحضر . إنما نحن زراع وخدام وعبيد يعيشون على هامش الحضارة يخدمون المصالح المالية الأجنبية ، التي قبضت على وادى النيل منذ عشرات من الأعوام . هذا كل دورنا الذي نلعبه حتى الساعة .

فنحن لم نقدم للعالم ما يدل على مساهمتنا في التقدم
الإنساني . لأن الفكرة الإنسانية نفسها بعيدة عن
ذهنيتنا . إننا لا نفكر إلا في أنفسنا وفي حياتنا الصغيرة
وما يحيط بها من عوائد بالية ومعتقدات قديمة وتقاليد
عتيقة . إن العالم المتحضر لا يهتم أن يعرف عنا شيئا .
لأننا ليس عندنا ما يستحق أن يعرفه العالم المتحضر .
ولأننا لا نفكر مطلقا في هذا العالم المتحضر . إنما نحن
نعيش كفصيلة من الدواجن وكفى . وهو يسخرنا
لحسابه تسخيرا ماديا وكفى . إنى لا أقول أن
خلعنا الطربوش سيأتى بالأعاجيب وسيغير هذا الموقف .
كلا مطلقا . إنما أقول وأصر على القول إن ما رأيته من
اتجاه الناس نحو استنكار كل تغيير للبالي العتيق هذا
الاستنكار العنيف وتكالب الناس حتى شباب الجيل
الجديد مع الأسف الشديد على الاحتفاظ بروح (القبيلة)

الجامد . كل هذا أدهشني وأحزنني ودلني على أن عقليتنا
 في ذاتها لم تنزل تميل إلى «العزلة الذهنية» وأن جرائم
 «البربرية» ما زالت متأصلة في نفوسنا ، وأن أماننا
 وقتنا طويلا قبل أن نهضم الأفكار الإنسانية في ذاتها
 ونصبح أهلا للانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة التي
 لا تتميز باختلاف الزى واللباس والتي اتجهت كلها إلى
 وحدة الزى ايذانا بوحدة الإنسانية ...

البعث

—

« حوريس — انهض ، انهض يا أوزيريس !

أنا ولدك حوريس ...

جئت أعيد إليك الحياة ،

جئت أجمع عظامك ،

وأربط عضلاتك ،

وأصل أعضائك ...

أنا حوريس الذى يكون أباه .

حوريس يعطيك عيوناً لترى ،

وآذاناً لتسمع ، وأقداماً لتسير ،

وسواعد لتعمل ...

ها هي ذى أعضائك صحيحة ،

وجسدك ينمو ،

ودماؤك تدب في عروقك .

إن لك دائماً قلبك الحقيقي ،

قلبك الماضي !

الميت — إني حي ، إني حي ! »

« كتاب الموتى »

وحوريس ليس إلا الشباب ، يعيد الحياة إلى
ماضيه الميت . نعم هو الشباب الذى يكون أباه الوطن .
وقد أعطاه بالفعل عيوناً يرى بها غابره العظيم فى حرите
وحاضره الذليل فى قيود الغرباء ، وأذا نأ يسمع بها ضحكات
السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون رقاد
ويستلبون خيراته . كما أعطاه أقداماً يسير بها كي يثبت لهم
أنه حي ، وسواعد يعمل بها علي تشييد الصرح المهدوم .
إن أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو . وها هو
ذا جسده يتحرك وينمو ، والدم يجري فى شرايينه .

والشباب على رأسه يصيح : « إن لك دائماً قلبك الحقيقي .
 قلبك الماضي ! . » ، ويخيل إلى أني أسمع الوطن من كل
 جانب يلبي النداء ويحيب الشباب الأبناء : « إني حي ،
 إني حي ! » إني دائماً أومن بأن مصر لا يمكن أن تموت .
 لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين
 لهدف واحد : مكافحة الموت . ولقد فازت مصر ببيغيتها .
 وكلما ظن الموت أنه انتصر . قام حوريس من أبنائها
 يصيح : « انهض ، انهض أيها الوطن ! . إن لك قلبك ،
 قلبك الحقيقي دائماً . . . قلبك الماضي ! » ، وإذا الموت
 يتراجع أمام صوت مدو من أعماق الوطن :
 « إني حي ، إني حي ! » .

في المرأة

UNIVERSITY OF CALIFORNIA

LIBRARY

PHYSICS DEPARTMENT

قائمة

المرأة والمجتمع

إنه ليدهشني حقا أن بعض الشباب المثقف نادى
يوماً بفصل الجنسين في الجامعة المصرية ، في وقت أثمر
فيه نظام الدراسة المتحدة وأخرج لنا فتيات حازرات على
الليسانس والماجستير والدكتوراه ، هن فخر مصر وهن
أنصع دليل على رقي مصر العقلي في الوقت الحاضر . إن
القول بأن المرأة للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطلقا
دون تثقيف المرأة تثقيفا تاما لتكون زينة البيت وأستاذ
الطفل ومعلم الجيل . إن المرأة ليست قطعة من أثاث
البيت توضع فيه بجهلها وعقلها المغلق . وهي ليست
خادماً تطعم الرجل وتغسل له ملابسه ، ولكنها شريك
محترم ينبغي أن يجد فيه الرجل متعة عقلية تحبب إليه
البيت .

أما شبع رجالنا طول الأجيال الماضية جلوساً في
القهوات والحانات يأنس بعضهم ببعض ، هارين من
وحشة المنزل الذي لا يحوى غير نساء كالمخادمت ؟ نعم .
إن المرأة للبيت . ولكنها لكي تكون بحق ملكة البيت
وقرة عينه يجب أن تتشقف أ كمل ثقافة . إن من النساء
في صدر الاسلام من فتن الرجال في فنون الشعر والأدب
والعلم والجدل . وقد كان لبعضهن مجالس مشهورة
يحضرها رجال الدولة ونوابغ الشعراء والأدباء والمغنين .
وكان ذلك في عصر لم تراحم فيه المرأة الرجل في المناصب
والأعمال . كذلك فلنقل عن ثقافة المرأة الأوروبية
يوم كانت - صالوناتها - تضم أعظم العباقرة دون أن
تخرج المرأة وقتئذ من أجل ذلك عن وظيفتها فتراحم
الرجل في أسباب معاشه . لا ينبغي إذن أن نخلط بين
أمر تثقيف المرأة وبين أمر وظيفتها . إن المرأة زهرة

البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه ، كلنا في ذلك متفقون ، فلنجعلها إذن زهرة . وهل نعرف زهرة أينعت دون أن تتعرض قليلا للشمس والهواء ؟! فلنحاذر كل الحذر من حبس المرأة . فان في ذلك حبساً لعقلها وموتاً لشخصيتها . ولنذكر أننا إلى اليوم ندفع غالياً ثمن سجن المرأة المصرية في الماضي . فهي كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدمها ضعفاً واحمر وجهها حياء وتلعثمت وتعثرت في هزالها النفسي والفكري وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والاشفاق وبدأت للأعين أقرب إلى الخادومات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاربيها واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها . كل هذا حدث لأن المرأة في مصر ذبل عقلها من طول السجن ولم تعتد مواجهة المجتمع منذ الصغر . إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا

كما يقصى الحيوان الحقيق جريمة فظيعة ، هي القتل المعنوى
بعينه لا أكثر ولا أقل ، وهى الامتهان لكرامتها
ولا دميتهامتهاناً يجب عليها أن تشور من أجله وأن تقيم
الدنيا وتقعد لها ولا تسكت عنه كما سككت فيما مضى
من أجيال . فان المسألة مسألة حياتها أو موتها . وإن
الذين يريدون قتلها باسم الدين ، والدين برىء ، لا يدركون
أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم .
إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة
كلها ومات .

المرأة والفن

إني إذا تكلم عن الفن لا يسعني إلا أن أعترف
مرغمًا أن المرأة هي روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على
هذه الأرض فربما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان
يوجد الفن ، ذلك أن الإلهام الفني هو نفسه قد خلق
على صورة امرأة ، وأن لكل لون من ألوان الفن عروسًا
هي التي تنثر أزهاره على الناس . ما من فنان على هذه
الأرض أبدع شيئًا إلا في ظل امرأة ، وهذا القول مني
غريب ، ولا بادر بتوضيح قصدي حتى لا يقال إني
رجعت إلى فضيلة الحق ، أعني الحق الذي تراه المرأة ،
كلا إني لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد . وكل ما في المسألة
أنني دائمًا أفرق بين المرأة كشيء يوحى بالجمال ، وبين
المرأة ك مخلوق يريد أن يستأثر بكل شيء في حياتنا .

إن عداوتي لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشى منه .
 إن عداوتي ليست إلا دفاعاً عن نفسي . فلو أن المرأة
 تمثال من الفضة فوق مكّتي ، أو باقة من الزهر في
 حجرتي ، أو أسطوانة موسيقية أنطقها وأسكتها
 بإرادتي ، لما كان لها عندي غير تقديس وإكبار
 لا يحدهما حد . ولكنها للأسف شيء يتكلم ويتحرك ،
 وهي أحياناً كالطفل يلقي من النافذة كل شيء ثمين
 ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار . على أن
 الانصاف يقتضي أن أقول إن المرأة إذ تحطم من جانب
 فهي تبني من جانب . إنها كالطبيعة في يديها العبقريتان :
 عبقرية الفناء وعبقرية البناء . وإنه لمن المستحيل أن نرى
 في التاريخ حضارة قامت بدونها ولا انحطت بدونها ،
 وأن عرشها في مملكة الفن أظهر الدروش . إنني أستطيع
 أن أقول على سبيل المثال إن أجمل الفن الرومانتيكي

الفرنسي إنما نبع تحت أقدام « مدام ريكاميه » وإن
صالونات السيدات في أوروبا ، ومجالس الشعر والغناء في
الشرق عند العرب هي التي أخرجت أجمل ما في الغرب
والشرق من شعر وآداب وفنون . ولا أستطيع أن
أضرب هنا الأمثلة ، ولكن من يفتح أي كتاب من
كتب العرب القديمة يرى وصف تلك المجالس التي كانت
تتصدرها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء
والمغنين ويقرأ تلك الأخبار التي لا تنتهي عن ذكر
الجواري المثقفات والنساء الشريفات اللاتي كن ينظمن
في السر والعلن تلك المجالس التي فيها نظم أجمل الشعر ،
وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح ، ولعلية أخت هارون
الرشيد ذوق في فنون الشعر والغناء أثر فيمن حولها من
كبار الفنانين والشعراء . ولمدام دي بومبادور أبرز يد
في حركة الفكر والفن في عصرها . ففي الغرب هي

المرأة ، وفي الشرق هي المرأة ؛ حيثما وجدت المرأة صاحبة الذوق وجد في الحال الفن ، ونهض الفكر ، وقامت الحضارة . وإذا قيل إن مصر الحديثة لم تر بعد فنا ناهضاً ، ومن ثم لم تبد أمام العالم بعد في ثوب الأمة المتحضرة . فإن السبب الوحيد أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح ما زالت في مصر نادرة الوجود ، إن اليوم الذي تعنى فيه المصرية باقتناء «لوحة زيتية» صغيرة أو «اسكيس» بسيط ينم عن ذوق تزين به جدار منزلها هو اليوم الذي يزهر فيه عندنا التصوير . واليوم الذي تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب جديد للمؤلف الذي تفضله وتجلدهذه النسخة وتعرضها عرضاً جميلاً ، وتتحدث عما فيها من كلام وافكار في مجالسها ، هو اليوم الذي يرقى فيه عندنا الفكر والأدب ، وإن اليوم الذي توجد فيه المرأة العظيمة التي تكرس بعض

همها لا يقاظ هم الفنانين وتنشيط الحركة الفكرية هو
اليوم الذي تقترب فيه من المدنية الحقيقية ، نحن في حاجة
إلى «البيت المصري» الذي تنمو فيه كل ملكات الطفل
الجميلة . إن الطفل الأوروبي منذ اليوم الأول الذي
يستقبل النور فيه لا ينام إلا على غناء جميل ، وما يمضي
قليل حتى تقوده أمه في عربة صغيرة إلى الحدائق ،
فلا يقع نظره الهادئ ، اللاهئ ، في غير وعى ولا
إدراك ، إلا على الطبيعة الجميلة ، بسماؤها وجنانها ،
وجداولها . وما يكاد يعي ويدرك بعض الإدراك حتى
توضع في يديه كتب لا كتابة فيها ولا كلام ، بل صور
جميلة ملونة للحيوانات والطيور والمخلوقات ، والطبيعة
في مظاهرها الوضاعة الساحرة ، فيحس جمال الرسم قبل
أن يفقه معنى كلمة «الرسم» ويطرب لتناسق النغم قبل
أن يعرف ما هو الغناء ، ويشعر بتناسب الأوضاع

وتجاوب الألوان فيما يحيط به من مظاهر الخليقة ، ولما
يعلم الكلمات والألفاظ التي يعبر بها عن كل هذه المشاعر
فهو قد أدرك وجود الجمال عن طريق الاحساس ، فلا
ينقصه بعدئذ إلا إدراكه عن طريق العقل والمنطق وهو
عمل المدرسة والكتب . على أن مجرد الشعور بوجود
الجمال في المخلوقات والأشياء طفرة كبرى في التكوين
الروحي للطفل . فما الجمال إلا المظهر الخارجي والثوب
البادي للنواميس العليا ، ففي إدراك وجوده إدراك خفي
مبهم لعظمة تلك القوانين التي تنظم الوجود . وهذا
الإدراك للجمال هو كل شرف الإنسان وفضله ، وهو
وحده الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوان ، فلو شعرت
الحيوانات يوما بالجمال لما لبثت حيوانات دقيقة واحدة .
إن أظهر عيب في المصرية الآن هو افتقارها إلى الذوق ،
أي الاحساس بالجمال في الأشياء . كم من المصريات تعتبر

الأزهار في بيتها ضرورة كضرورة الطعام والشراب ؟
 إذا وصلت المرأة المصرية إلى هذه الدرجة من الحس
 المرهف ، وبلغت في دقة مشاعرها حدا لا تستطيع معه
 أن تستغنى في حياتها اليومية عن الجمال في الألوان
 والأصوات والأفكار ، فلقد حق لنا أن نصيح فرحين
 مهللين بحق : « إن مصر لا تقل رقياً عن أرق الدول حضارة »
 وهذه المرأة المصرية ذات الذوق الرفيع والروح المهذب ،
 الدقيقة الاحساس بكل ما هو جميل ، هي نفسها التي تخلق
 الفنان وتوحى إليه ، لأنها لا تستطيع أن تكون بمعزل
 عن أولئك الذين يصنعون الجمال . إنها ستهم بأمره
 وتواليه بالتشجيع ولا تتركه يفتر حتى تستثير خياله ،
 فالمرأة يجب أن تعلم أن « الفنان » ليس إلا « قيثارة » ،
 وأن أناملها الرقيقة وحدها هي التي تستطيع أن تخرج منه
 أجمل الأنغام . .

المرأة والفنانه

الفنان الحقيقي هو ذلك الرجل العجيب الذى تزوج
« الفن » ، فهل مثل هذا الانسان يستطيع أن يتزوج
أيضا « المرأة » ؟ هذا أمر اختلفت فيه الآراء . . . ورأى
الشخصى أن هذا مستطاع ، لو أدركت المرأة أن حياتها
مع هذا الانسان لا ينبغى أن تشابه أى حياة أخرى .
وأن حياتها ستبذل بلا ثمن لرجل بذل حياته هو أيضا
بلا ثمن ! .

نعم ، يجب أن تفهم امرأة الفنان أن كل حياتها
ينبغى أن تقدم لزوجها الفنان ، وأن كل رسالتها فى
الحياة أن تكفل لزوجها الحياة الهنيئة الجميلة التى فى
كنفها ينتج ويخلق . زوجة الفنان هى تلك التى
تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها أن يعنى بها . هى التى

تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها . هي التي تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقاً بهمومها ... هي ذلك المخلوق الذي يعيش صامتاً صابراً باسمًا بجوار الفنان طول العمر ، دون أن يشعره لحظة واحدة بوقر هذا الجوار ، هي التي تقف إلى جانبه دائماً دون أن يفطن إلى أنها موجودة . إن الزوجة التي تستطيع أن تعيش مع «الفنان» هي بالاختصار تلك التي لها رسالة وعقيدة ، هي التي تستحق بصبرها وتضحياتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه . هي التي تضع في قلبها هذه الكلمة : « إنما يعيش الفنان من أجل الفن وتعيش هي من أجل الفنان » .

المرأة وأشواكرها

كثيراً ما يخلط الناس في أمر نظرتي وعلاقتي بالمرأة ،
وإنهم ليتهمونني أحياناً بالتناقض ، إذ يرون اني احمل
عليها مرة ، واشيد بذكرها اخرى . والحقيقة اني في
كلا الحالين اعتقد ما اقول .

فالمرأة من غير شك هي الزهرة المشرقة في بستان
وجودنا الآدمي ، زهرة لها نضارتها وعبيرها ، لكن
لها ايضاً اشواكرها .

جمال المرأة وفتنتها : تلك هي في نظري اشواكرها
الحقيقية التي تضع فيها كل سموم سلطانها ووسطوتها .
فالمرأة إنما تشهر علينا نحن الرجال هذا السلاح ، وتقف
به في وجه اعمالنا ، أمرة فينا وناهية ، صائحة بنا أحياناً
أن نقف في طريقنا كما تقف القافلة تحت تهديد قطاع

الطريق ، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت ، وقلب ،
ومال ، وجاه ، وشهرة . إنها لتجردنا من كل شيء ،
وتتركنا عراة تحت سلطان سلاحها المسلط الخيف !

لعلها تتهمني بالمبالغة ، ولكن هل تستطيع امرأة
ان تقول لي إن هنالك امرأة في الوجود تعيش لغرض
آخر غير سلب الرجل ! . انك اذا فتحت رأس امرأة
لما وجد فيه غير هذه الغاية : السطو على رجل !

إن الرجل قد يعيش لعمله ، أو لفكرته ، ولكن
فكرة المرأة وعملها هو البحث عن الرجل الذي تسلبه
لحظاته وكل حياته . فاذا نظرت المرأة الى رجل مشهور
فانما تنظر اليه بفكرة واحدة : أن هذه الشهرة لها ،
واذا كان غنياً فالمال لها ، واذا كان لبقاً ظريفاً فكل
ذلك لسرورها وخدمتها !

لست أتكلم بالطبع هنا عن المرأة المجردة من السلاح ،

ولكنى اتكلم عن المرأة ذات الأَشْوَاك ، المرأة المدججة
«بسلاح» الفتنة والجمال . ها هو ذا تاريخ البشرية امامنا .
اين هي المرأة الجميلة التي لم تستخدم جمالها في إخضاع
الرجل ؟؟ كم امرأة في التاريخ جعلت جمالها في خدمة
«غاية أسمى» من إخضاع الرجل ؟ إن المرأة ليست لها
الشجاعة ان تنكس سلاح جمالها في وجه الرجل . إن
المرأة مخلوق «غير سامي» ، متى وجد في يدها سلاح
تحركت فيها غريزة السطو والحرب . إن المرأة الجميلة
هي عدو الرجل المفكر .

المرأة والعظمة

سأنتني احدى المجلات عن النساء العظيمات في
مصر اليوم . فذكرت أربعاً تصاح كل واحدة منهن ان
تمثل ناحية من نواحي العظمة في المرأة . الأولى والثانية
معروفتان . والثالثة والرابعة مجهولتان . الأولى والثانية
رمز لعظمة المرأة الشرقية في المحيط العام . والثالثة
والرابعة رمز لتلك العظمة في المحيط الخاص :

الأولى - تلك التي شاركت زوجها العظيم في
قيادة حركة تحرير البلاد . وتعرضت معه لكل الاخطار
وقالت له في شجاعة يوم علمت ان الشجاعة قد تكلفه
الحياة « امض في طريق الجهاد وأنا معك » وحملت عنه
وهو في منفاه لواء الثورة . وقاسمته إلى وفاته بيض
الأيام وسودها . ثم بقيت وحدها بعده رمز الأمة

المتحدة ، لا تميل الى يمين ولا الى شمال . وتعصف حول
اقدامها عواصف الحزبية وهي ثابتة شاحخة كأنها «الوحدة
القومية» صبت في تمثال . انها بقيت جذيرة بزوجها في
حياته ومماته . بل انها بقيت تذكرنا ببعض معاني
العظمة في وقت نسيت كلمة العظمة في ميادين السياسة
القومية .

الثانية - تلك التي قادت حركة تحرير المرأة في
مصر والشرق . وجاهدت جهادا متصلا في سبيل الرقي
بمستوى المرأة المصرية الاجتماعي . وبذلت من جهدها
ومالها ووقتها في اقامة المنشآت العامة التي تنفع الفتاة
والمرأة . ولقد خالفت هذه الزعيمة في بعض الآراء .
لكن مهما يكن من امر خلافتنا في الوسائل والتفاصيل
فاني متفق معها في الغاية النبيلة والغرض الأسمى : وهو
رقي المرأة المصرية والشرقية . من أجل ذلك لا يسعني

الا ان اعترف بعظمة هذه السيدة التي تكرس حياتها
لمثل هذا الهدف العظيم وأرجو مخلصاً أن تنجح في
رسالتها وأن ينصفها التاريخ ، الذي لا شك مثبتها على
كل حال في سجل العظيمات .

الثالثة — تلك التي لا يعترف بعظمتها سوى .
لأنها مجهولة كالجندى المجهول . وهي مثله تمثل فئة
تجاهد في الظلام جهاد الأبطال . لقد اتاحت لي الظروف
ان اعرفها واراها عن قرب . رأيتها وهي تهذب اطفالها
وتنشئهم على حب المثل العليا . لقد كانت تجمعهم كل
ليلة عقب العشاء لتقص عليهم قصصاً لذيذاً مما تطالعه
اثناء فراغها ، تختاره من بين ذلك النوع الممتلئ
بالبطولة الخلقية والفضائل الانسانية ، ولم يكن اطفالها
وحدهم هم الذين يلذ لهم هذا القصص بل زوجها أيضاً
الذي كان يبدر في العودة حاملاً الحلوى ليصغى إليها مع

الأطفال . لقد كانت هذه السيدة إلهة ذلك البيت
بالمعنى العظيم لتلك الكلمة . ولقد كانت المعينة لزوجها
في كل شيء الناصحة له في كل أمر . اذا شذيو ما عرن
نصحها ضل . لقد تحملت معه قسوة الحياة منذ اليوم
الأول وذاقت معه مر الكأس وكان نصيبها أكثر
من نصيبه . أما حلوها فما كانت تسمح لنفسها إلا
بالأقل . وكانت ذكية قوية الارادة تتقن كل عمل
وتحب أن تحذق كل شيء يقع في محيط حياتها . لقد
ادارت بيتها خير ادارة ، بل ادارت مزرعة زوجها
خيرا منه يوم اضطرتها الظروف إلى هذا العمل . ولقد
شاهدت اولادها يشبون على مبادئ الخلق القويم
والرجولة الكاملة التي غرسها فيهم . ورأت زوجها
يختم حياته السعيدة لافظا اسمها مع النفس الأخير ،
فعلمت انها أدت واجبها كزوجة صالحة وأم مثلى .

من هي هذه السيدة ذلك لا يهمنا ولا يهمها . فحسبنا أن نعرف انها امرأة عرفت واجبتها وأدته على الوجه الأكمل . وهذا ليس بالشئ القليل على هذه الأرض . وهذا وحده يكفي أن ننحني لها احتراما كما ننحني امام تمثال الجندي المجهول . ذلك البطل المستتر رمز البطولة المستورة التي لا تقل شأننا عن البطولة المشهورة .

الرابعة - تلك التي . . . تريد زوجا لا كأغلب الرجال . بل رجل ذو رسالة عامة شاقة يكافح في سبيل اداؤها معرضا حياته للنجاح والفشل وللسلامة والخطر . رجل يعيش بمثل عليا يرجو أن ينير بها طريق الناس والأنسانية ، لماذا تريد أن تقرن حياتها بحياة هذا الرجل ؟ لأنها تريد أن تكرس نفسها لهدف عظيم . انها اذن عظيمة النفس . انى اتصور ما تستطيع أن

تصنع لزوجها مثل هذه المرأة ؟ إنها ستسهر عليه كما
تسهر العين اليقظة على المصباح المضيء ، تحرص على
استمرار تألقه وتمسح عنه الدخان وتملؤه بالزيت من
حين إلى حين .

المرأة والبيت

سألتني كذلك إحدى المجلات عن رأيي في الفتاة
المصرية الحديثة وفهمها لرسالتها نحو «البيت». فأبدت
خوفاً شديداً من أن يؤدي تيار الحياة العصرية إلى
جرف المرأة المصرية بعيداً عن واجبها الأسمى. فالفتاة
اليوم امام هيكلين هائلين يؤثران في عقليتها الناشئة
ومجرى تفكيرها الحديث : دور السينما ودور الجامعات
وانى لأخشى أن أقول إن الفتاة في مصر اليوم إذا
فقدت الأثران واندفعت بكل روحها إلى أحد هذين
الهيكليين فلا مناص لها من أن تكون إحدى اثنتين :
الأولى - تلك التي تخرجت بنجاح من دور
السينما والملاهي وحذقت تقليد ممثلات هليوود ورأت
كلوديت كولبير تصفع زوجها في الرواية على خده

سيل فيمسح مكان الصفع بالمنديل وراحت تراقص
 هذا وذاك وتجلس على مقعد «البار» العالى وتمدد عارية
 على أديم الرمال ولا تعرف من شئون الدنيا والآخرة
 غير الكلام فى الجاذبية وقلة الجاذبية التى عند الرجال
 ولا تدرك أن عليها زوجها واجبات ، فهى ليست
 مسئولة عن بيت ولا مطبخ ولا أولاد لأن هذا من
 عمل الخدم والمریات . أما هى فوظيفتها فى الصباح
 الطواف بحوانيت الزينة والثياب والذهاب إلى الخياطات
 وفى الظهر استقبال زوجها بالطلبات ، وفى العصر التعلق
 برقبتة ليخرج بها إلى النزهة أو يدعها تذهب إلى
 (زوزو) و (شوشو) و (موشو) للعب (البريدج) و
 (الكونكان) .

اظن مثل هذه المرأة توافقنى على أن الرجل المحترم
 المسئول هو آخر من يفكر فى قبول مثل هذه المرأة

شريكا محترما يسير إلى جانبه في طريق حياة جديدة قد تكون عظيمة الأثر في تاريخ بلاده .

أما النوع الثاني من المرأة فهو نوع تخرج بنجاح من المدارس والجامعات فحذق تقليد الرجل في جهله بشئون البيت ، ومعرفته بآراء افلاطون وأبي العلاء ، نوع من حائزات البكالوريات أو الدبلومات اللاتي قد يصلحن للتدريس أو التوظيف ولكنهن لا يصلحن زوجات ، نساء يعرفن أفلاطون ولا يعرفن كيف تقلى بيضة فاذا مرض الطباخ أو خرج تغدى الزوج المحترم بزبدة أفكار أفلاطون .

أما خريجات المدارس الأجنبية ممن تعلمن قشور اللغة الفرنسية أو الإنجليزية ومبادئ البيانو فانهن عرائس جوفاء صنعت في حوانيت (المير دي ديو) أو (الدام دي سيون) لتوضع مع جهاز العرس في بيت زوج مسكين

كتب عليه أن ينكب بحمل هذه الدمية المتحركة الناطقة
(بمونشير) و (ماشيري) من حيث أراد معينا يعينه على
حمل متاعب الحياة .

وكلا المرأتين لم تفهم مما تعلمته في هذه المدارس
المختلفة غير شيء واحد : حقها المطلق في السيطرة على
الرجل واخضاعه وعدم طاعته وجعله خادما لمطالبها نازلا
على إرادتها واعتبار أي حق له قبلها تأخراً يقابل منها
بالاحتجاج والازدراء . هذا حادث في مصر بالفعل
الآن . أما في أوروبا حيث عرفت المرأة كيف تصل
إلى الاتزان المطلوب فهاكم ما تقوله زوجة فاضلة في
إحدى القصص الفرنسية الشهيرة قرأتها أخيراً بالمصادفة :
(منذ الأيام الأولى لزواجي رسمت لنفسى خط سير
محدد : هو أن أسمع وأعمل كل ما يريده زوجي ولم انحرف
أبداً عن هذا المبدأ ولقد وجدت نفسى بذلك على خير

حال . إذ بفضل ذلك جعل زوجي يسمع ويعمل كل ما أريد . هنا سر سعادتي وهي كما ترى قائمة على هذا المبدأ البسيط : فلتفعل الزوجة ما يعجب زوجها يفعل هو ما يعجبها) .

هل يستطيع أحد أن يعدد لي كثيراً من الزوجات عندنا اليوم يسرن على مثل هذا المبدأ البسيط !!
 إنني أعتقد أن الزوجة الصالحة هي تلك التي تستطيع مشاركة زوجها في سيره الطويل الشاق في طريق الحياة ، وأن تعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال متاعب السير ، وأن تخفف عنه قسطاً وافراً من أعباء الحياة اليومية .

لكم أثرت في نفسي صورة أخيرة للمستترتشرشل وهو يمشي إلى جوار زوجته متنزهين في إحدى الطرق . كل ما في تلك الصورة يدل على أن هذين الزوجين

قد قطعاً معاً على هذا النحو طريق الحياة بما فيه من
هناء وشقاء . كذلك أثرت في نفسي كلمة إهداء صدر
بها أحد كبار رجال السياسة في فرنسا كتاباً له ختم به
حياة كلها كفاح : « إلى زوجتي التي تشاركني أيامي
البيض وأيامي السود » !

فألى أن تكثر في مصر والشرق مثل هذه الشريكة
لن نجد بكثرة رجالاً عظاماً يحتملون السير في طريق
الجهاد والمجد حتى النهاية مـ

فهرست

صفحة

١١	في الدين :
١٣	منطقة الأيمان
٢١	الدفاع عن الإسلام
٤٠	نجم احمد
٤٩	سر العظمة
٥٧	المرأة في شباب النبي
٦٣	في الأدب والفن والثقافة :
٦٥	الخلق
٨٧	النقد
١١٢	بين الخالق والناقد
١١٦	منابع الفن المصري
١٢٩	الثقافة الشرقية
١٣٥	كتلة الروح الشرقي
١٣٧	احياء الثقافة العربية القديمة
١٤١	أثر أوروبا في أدبنا الحديث

صفحة

١٤٥	الأدب العربي في الماضي والحاضر
١٥٠	من النيل الى السين — ١
١٥٧	من السين الى النيل — ٢
١٦٣	في السياسة والاجتماع :
١٦٥	هستريا السياسة
١٦٨	جموع الديموقراطية
١٧١	الايمان بالمثل العليا
١٧٤	داء الكلام
١٧٨	البرنامج أولا
١٨١	فساد الدولاب
١٨٤	الحرب بكل الاسلحة
١٨٦	نعيم الانتخابات
١٩٠	شركة مقاولات الانتخابات
١٩٣	العرائس
١٩٦	الشحاذون
٢٠١	شجرة الحكم
٢١٧	الأحزاب والشعب
٢٢٣	الفكر والشعب

صفحة

٢٢٩ كادر المقامات

٢٣٤ مصر والشعار الدولي

٢٣٩ المعنى الانساني لوحدة الزى

٢٤٣ البعث

٢٤٧ في المرأة :

٢٤٩ المرأة والمجتمع

٢٥٣ المرأة والفن

٢٦٠ المرأة والفنان

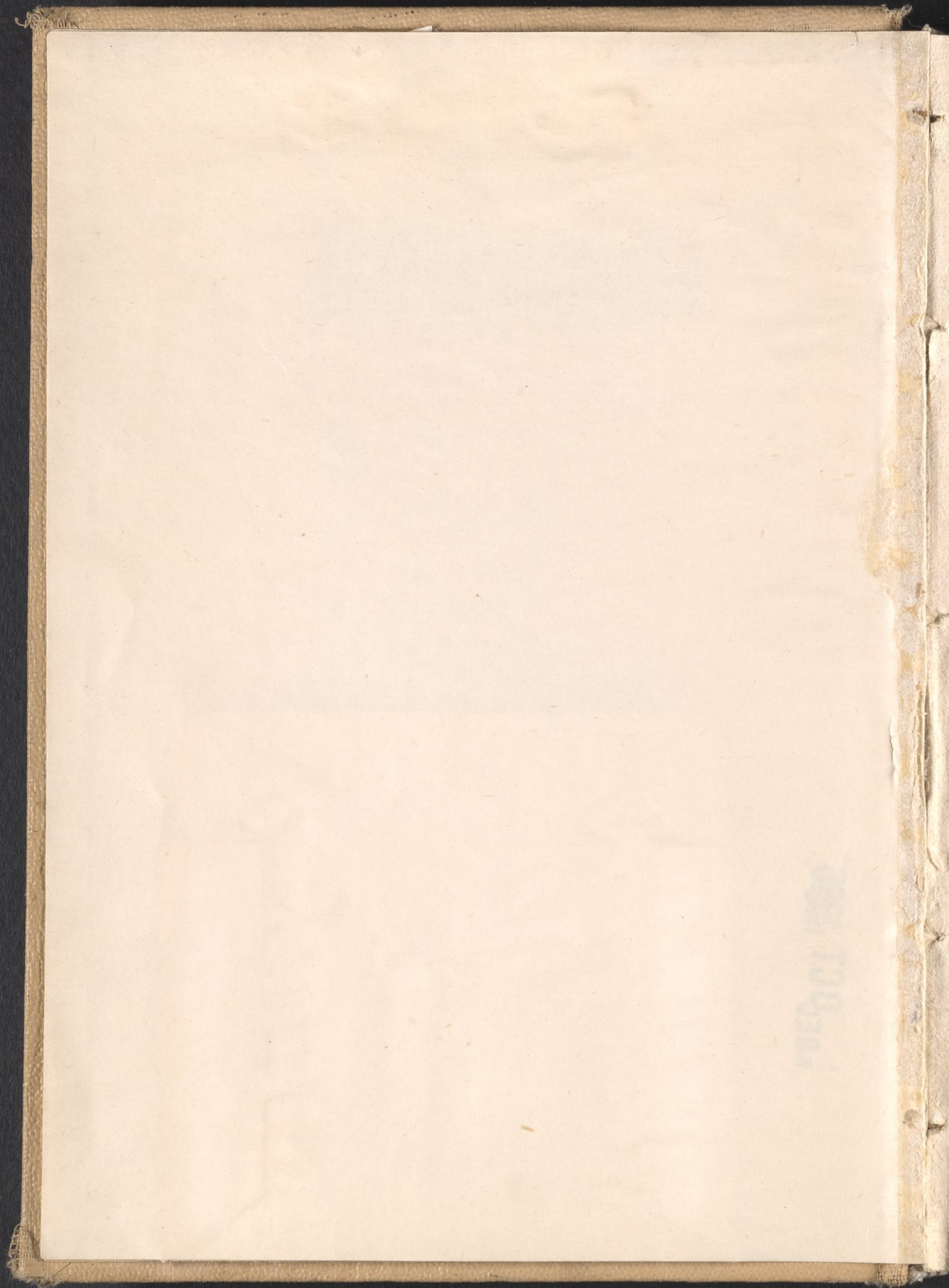
٢٦٢ المرأة وأشواقها

٢٦٥ المرأة والعظمة

٢٧١ المرأة والبيت

نوع	نوع
٢٢١	نوع
٢٢٢	نوع
٢٢٣	نوع
٢٢٤	نوع
٢٢٥	نوع
٢٢٦	نوع
٢٢٧	نوع
٢٢٨	نوع
٢٢٩	نوع
٢٣٠	نوع
٢٣١	نوع
٢٣٢	نوع
٢٣٣	نوع
٢٣٤	نوع
٢٣٥	نوع
٢٣٦	نوع
٢٣٧	نوع
٢٣٨	نوع
٢٣٩	نوع
٢٤٠	نوع

PHOTODUPLICATION SERVICE
UNIVERSITY MICROFILMS
SERIALS ACQUISITION
300 N ZEEB RD
ANN ARBOR MI 48106-1500





1 0 0 0 0 0 0 4 6 2 8

DEC OCT 1986

PJ
7828
K52
T35
1941

BRARY

